منن الرحمن
في
شرح قصيدة أبي حنيفة النعمان في مدح سيد ولد عدنان ﷺ

تصنيف

الشيخ العلامة مصطفى بن محمود الوردي

من علماء القرن الثالث عشر الهجري

تحقيق وتعليق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الناشر

دار الحقيقة

للبحث العلمي

منن الرحمن

في

شرح قصيدة أبي حنيفة النعمان

في مدح سيد ولد عدنان ﷺ

مطبـــوعـــات

دار الحقيقة

الطبعة الأولى

١٤٣٠ هـ- ٢٠٠٨م

الناشر

دار الحقيقة

للبحث العلمي

القاهرة- مصر

٠٠٢/٠١٠١٤٦٣٠٢٧

توزيع دارة الكرز

١٧ ش منشية البكري- مصر الجديدة — القاهرة

ت ٢٤٥٥١٣٠٤

اسم الكتاب:

منن الرحمن شرح قصيدة النعمان في مدح سيد ولد عدنان.

المؤلف: مصطفى بن محمود الوردي

المحقق: الشيخ أحمد فريد المزيدي.

الناشر: دار الحقيقة للبحث العلمي

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:

٢٠٠٧/٢٧٣٦٨م

الترقيم الدولي/ **isbn**

٩٧٧-٦١٦٥٦—٧٩-٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، حمد العاملين به والعالمين، حمدًا نكون به من المنعَّمين، وعلى النفوس بالتزكية مُنْعَمِين، بحول ذي الحول، وقوة ذي الطول المتين، لنسلك الطريق الواضح المبين، والصلاة والسلام على مَن جعل الله في صلاتنا عليه صلاتنا، وفي تحياتنا المباركة عليه بقاؤنا وحياتنا؛ إذ عنه كان الظهور وبسببه، وقد اتصل -والحمد لله- نسبنا بنسبه، وسببنا بسببه، فبقاؤنا عن استمداده وإمداده، وحياتنا الظاهرة والباطنة بواسطة إسعافه وإسعاده، فهو محمدنا المحمود، وأحمدنا المقصود، ومعراجنا الأقوم، ومنهاجنا الأفخم، وسراجنا الأنور، وتاجنا الأفخر، ونورنا الأسنى، ودستورنا الأدنى، الذي دنى فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، بحر السر العجاج، وبر البر الوهاج، الباب الأعلى، واللّباب الأغلى، مَظهر الحقائق ومُظهر الرقائق، مشرع الشريعة والطريقة والحقيقة، ومُشَرِّعٌ أظهر كل لطيفة ودقيقة، سيدٌ ساد به كل ذي سيادة، وزادٌ زاد به نيل النيل وتمت الزيادة، عروس الحضرات، ومحروس النظرات، إمام كل إمام، ومقدام به عرف [الوراء][1] والأمام، سر السر الجامع، الدال عليه، وحجابه الأعظم القائم له بين يديه، مفتاح ظهر به سر الغيوب، ومصباح طهر من شر العيوب، برزخ كلي للسر جامع، ونوراني بالبر هامع، مركز نقطة دائرة الوجود، وسر حيطتها الشامخ، قبة أرين الشهود، ودر خاصتها الباذخ، أمين الأسرار المطلسمة، وخَدِين الأنوار المجموعة المقسمة، كنز سر الأحدية، ورمز برّ الواحدية، من ألبسته أشرف حلة، وخصصته وجعلته للمكرمات جلة، ومنحته خلة هي أعظم حلة، ولم تجعل له إلى أحد خلّة، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه الذين كشفوا به عن وجوه المعاني، وأرشفوا بعد كشفهم الطالب المعاني، وعلى التابعين وتابعيهم إلى يوم القيامة، ما تدرَّع صبٌّ بدرع الاقتداء حتى بلغ دار السلامة، وسلّم تسليمًا، وعظّم تعظيمًا.

---

(١) في الأصل (الورى)

وبعد .. فقد كتب الإمام أبي حنيفة هذه القصيدة ليتقرب بها من رسول الله ﷺ، ولينشدها بين يديه في أثناء زيارته، و لم يطلع عليها أحد. فلما وصل إلى المدينة المنورة، سمع المؤذن ينشدها على المئذنة! فعجب من ذلك و انتظر المؤذن. فسأله: لمن هذه القصيدة؟.! قال: لأبي حنيفة. قال: أتعرفه؟ قال: لا. قال: و عمن أخذتها؟.! قال: في رؤياي أنشدها بين يدي المصطفى ﷺ، فحفظتها و ناجيته بها على المئذنة. فدمعت عينا أبي حنيفة..

وها هو ذا شرح وحيد عليها، ومؤلف هذا الكتاب هو الشيخ مصطفى بن محمود الوردي تلميذ الشيخ رئيس المدرسين بالمدينة المنورة الفقيه الحنفي المدني يوسف الغزي صاحب رفع الاشتباه عن حديث من صلى في مسجدي ﷺ أربعين صلاة، تنبيه الأنام عن كيفية إسقاط الصلاة والصيام، الكواكب اللامعات في حكم المائعات، فتح الخالق في معنى قول الرجل لزوجته غير المدخول بها أنت طالق وطالق وطالق، ونظم الفريدة في المصطلح وشرحها.

وكان المصنف في فترة خلافة السلطان عبد العزيز بن السلطان محمود الثاني تولى الملك بعد أخيه السلطان عبد المجيد وكان سلطاناً مهاباً جسوراً ذكياً نبيهاً عارفاً بدقائق السلطنة، تولى الملك سابع عشر ذي القعدة الحرام سنة ألف ومائتين وسبع وسبعين، وتوفي سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف سابع جمادى الأولى.

وللمصنف رحمه الله: «وجدة الوردية في شرح قصيدة البردية في مدح خير البرية عليه أزكى صلاة البرية»، و«تحفة الوردية في معراج خير البرية»، و«بحر اللآلى في شرح بدء الأمالي»، كما أشار هو بذلك.

هذا وقد قمت بالضبط والتحقيق، والتخريج والعزو والتوثيق، ولقد وجدنا الكثير من التصحيف والسقط والتحريف في هذه النسخة التي لا نعلم لها ثانٍ، وهي بخط مصنفها، وما هو إلا سهوٌ كلنا عرضة له، علمًا بأن النسخة من نوادر التراث.

هذا وما هو إلا جهد المقل، ومحاولة الاقتراب من دخول الباب، وحصول بركة الأعتاب، وطمعًا في ورثة أُولي الألباب.

وصلى الله على سيدنا محمد ﷺ هادي العباد، ولباب اللباب، وموصل الألباب لحضرة القدوس الوهاب.

كتبه/ أبو الحسن والحسين: أحمد فريد المزيدي ٠١٠١٤٦٣٠٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الملك المنان، الرءوف الرَّحمن العفوِّ الحنان، الذي تقدس ذاته عن الجهة والمكان، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد ولد عدنان، محمد المنزَّل عليه القرآن، الذي هو قطب دائرة الزمان، وعين الأعيان، الذي تاه في حبه ذووا الذَّوق والعرفان، وعلى آله وصحبه المتلبسين بالحسن والجمال والإحسان، وعلى الأئمة الأربعة للدِّين أركان، سيما العالم الوفي والحبر الصفي، الإمام الأعظم والمجتهد الأقدم، أعني به حضرت نعمان بن ثابت الكوفي.

أما بعد، فيقول المفتقر إلى عفو ربه الغني، **مصطفى بن محمود الوردي**:

لما لم يكن لقصيدة «النعماني في مدح سيد العدناني» شرح لأهل البيان، أردت شرحها، وإن لم أكن من نوع الإنسان، سميته: «منن الرحمن في شرح القصيدة الميمونة للإمام الأعظم نعمان، في مدح سيد ولد عدنان»، أيها الواقف على ما فيه من الخطأ والسهو والنسيان لا تنظر إليه بعين الحسد والبخل والامتحان، بل بالرضا والإصلاح والإحسان: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، وإنما حملني على شرحها إلا عفو إمام الأئمة، وركن الله وعين الأمة.

اعلم أن هذه القصيدة منسوبة إلى صاحب «المستظرف» أيضًا، والأول أصح، وعند الله ما هو أرجح.

قال الإمام النعمان عين الوفا مادحًا في المصطفى ﷺ:

يَـا سَـيِّدَ الـسَّادَاتِ جِئْتُـكَ قَاصِـدًا   أَرْجُـو رِضَـاكَ وَأَحْتَمِـي بِحِمَاكَـا

(يا): حرف النداء للقريب والمتوسط والبعيد، وأصل (السيد): سيود، قُلِبَتْ الواو ياء وأدغمت الياء في الياء فصار (سيِّد)، وهو بمعنى الشَّريف الحسيب النسيب، و(السادات): جمع سادة، كـ(عادات) جمع عادة[1]، قوله: **(جئتك)** أي: جئت إليك، ففيه حذف وإيصال حال كوني، **(قاصدًا)**: تقبيل أعتاب بابك وراجيًا رضاك، قوله: **(أحتمي ..**

---

(١) السادات، جمع السادة، والألف فيهما منقلبة عن الواو؛ لتحركها، وانفتاح ما قبلها، والأصل: السودة والسودات؛ لأنهما من السود بالضم، والسؤدد بالهمز، وبدونه بوزن القنفد، أي: السيادة، كما في «القاموس»، ومن البديع الحسن عادات السادات، سادات العادات، والسادة: جمع السيد كما قيل، أو جمع السايد كما قاله المجد والعيني، وهو الظاهر كالقادة في جمع القائد، والصاغة في جمع الصائغ، والسايد هو السيد أو دونه، والأول هو المراد وهو ما صدَّر به المجد الفيروز آبادي في «قاموسه» والسيد هو المتولي للسواد أي: الجماعة الكثيرة، وينسب إليه، فيقال: سيد القوم ولا يقال: سيد الثوب، ولا سيد الفرس، ويقال: ساد القوم يسودهم.

إلخ) أي: أطلب الحفظ بسبب حفظك، والمراد من (السَّادات): إما الرسل العظام عليهم الصلاة والسلام أو الشرفاء مطلقًا، والكل صحيح.

دقيقة: قال العلامة ابن قاسم العبادي في حاشية «التُّحفة»:

اعلم أن عدد اسم النبي محمد ﷺ -بحساب جُمَّله الكبرى- ثلاث مائة وأربعة عشر، كعدد الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، ففيه إشارة إلى أن جميع فضائلهم مجموع للشَّفيع المشفَّع، ولله درُّ القائل:

أنـتَ مِـصبَاحُ كـلِّ فَـضلٍ فَـمَا تَـصـ ... دُرُ إلَّا عَـــن ضَــوئِكَ الأضـــوَاءُ
لَـكَ ذَاتُ العُلـومِ مِـن عـالِمِ الغَيـ ... ـبِ ومِنهَـا لآدَمَ الأسـمَاءُ

وحاصل معنى البيت: يا أشرف الشرفاء وأنجب النجباء، وسيد الرسل والأنبياء، جئت إليك زائرًا، قاصدًا تقبيل أعتاب أبواب جودك وكرمك، راجيًا رضاك ومتحفِّظًا بحفظك ومستفيضًا من فيضك؛ إذ ليس مَلْجَئِي إلا إليك وذكر ذكري نور جمالك، والأرض والسماء مملوءة من نور بهائك(١)، والملك والملكوت والدوام والرحمة من اسمك.

ولله در الناظم:

لا تَقِـسْ بـالنبيِّ في الفـضل خَلْقًـا ... فهـو البحـر والأنـامُ إضـاءُ
كـلُّ فـضلٍ في العـالَمِين فمـن فَـضـ ... ـلِ النبـيِّ اسـتعارَهُ الفُـضَلاءُ

ولله در الحسان ؓ شاعر النبي ﷺ:

خُلقـتَ مـبرَّأً مـن كُـلِّ عَيـبٍ ... كأنـك قـد خُلقـتَ كـما تـشاءُ

---

(١) تنبيه: قد سمَّى الله نبينا نور، فقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ [الأعراف:١٥٧]، ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ [المائدة:١٥]، وكان ﷺ يكثر الدعاء، بقوله: «اللهم اجعلني نورًا، واجعل لي نورًا» إظهار الوقوع ذلك، وتفضل الله عليه بقبول دعائه؛ ليزداد شكره، وشكر أمته على ذلك، كما أنه أمرنا بالدعاء الذي في آخر البقرة مع وقوعه، وتفضل الله تعالى به لذلك، ومما يؤيد أنه ﷺ صار نورًا أنه كان إذا مشى في الشمس والقمر لا يظهر له ظل؛ لأنه لا يظهر الظل إلا للشيء الكثيف الجسماني، وهو ﷺ قد خلَّصه الله تعالى من سائر الكثائف الجسمانية، وصيَّره نورًا صرفًا، لا يظهر له ظل أصلاً خرقًا للعادة كما جرى له في شقِّ صدره وقلبه مرارًا، ولم يتأثر بذلك.

أنشد الإمام:

وَاللهِ يَـــا خَـــيْرَ الخَلَائِـــقِ إِنَّ لِي قَلْبًـــا مَـــشُوقًا، لَا يَـــرُومُ سِـــوَاكَا

(الواو): حرف قسم، ولفظ الجلال: مقسم به، وفعل القسم محذوف تقديره: أقسم، وجوابه: **(أن لي قلبًا ... إلخ)**.

قوله **(لا يروم)** أي: لا يطلب ولا يقصد ولا يميل إلى أحد غيرك:

فَـــوَ اللهِ إِنَّ هـــذا لَرَســـول الله فجميـــعُ الأشـــياءِ إليـــه تميـــل

فَنَفْـــسِي ورُوحـــي لـــه فـــداء فَـــإِن فِـــدَائِي لَـــهُ لَقَلِيـــل

اعلم أن جميع الأشياء مائلة إلى كعبة العاشقين ومتوجهة إلى روح الواصلين، وسابحة إلى ذكر الذاكرين، محمد سيد المرسلين- صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين- في كل وقت وحين، وإلى هذا أشار الإمام الوفي والعالم الصفي، أبو حنيفة الكوفي: أقول تحدُّثًا بنعمة الله لا سمعة ورياء، كنت في مكة المكرمة -حرسها الله تعالى- رأيت في النَّوم أن الحرم الشَّريف قد امتلأ من النَّاس، والصفوف دائرون حول الكعبة -شرَّفها الله تعالى- ومتوجهون إليها وهم يصلون العصر، ورأيت الكعبة متوجهة إلى المدينة المنورة، على حاميها أفضل الصلاة وأكمل السلام، فاستغربت الأمر، ثم ظهر لي أن القبلة -حقيقةً- هو النبي ﷺ[1]

والدليل على كونه ﷺ خير الخلائق قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ [آل عمران:١١] إلى آخر الآية، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٧].

ولاشكَّ أن خيرية الأمة بحسب كمالاتهم في الدين، وذلك تابع لكمال نبيهم الذي يتبعونه، وإن مَنْ كان رحمة لغيره أفضل من غيره، وقوله ﷺ: **«لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب، ولا نبي مرسل»**[2]، وقوله ﷺ في حديث طويل: **«أنا أكرم الأولين والآخرين**

---

(١) فائدة ملحقة: قال ابن فارس في «المنح الإلهية في مناقب الوفائية»: وكنت مرة ساعيًا في ركابه الشريف- أي سيدي علي وفا قدس الله روحه- في مشهدٍ في آخر الليل، فنحن في قناطر السباع، وإذا بشخصٍ مرَّ بنا، وقال: الله يجعلك في حب الطائفين بالكعبة، فقال سيدي للعبد: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، الصدِّيق يُسمَّى عتيق.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه (١/ ٣١٣)

على الله ولا فخر»[1]، وإن أردت بسط الكلام فعليك بالمراجعة في كتابنا «وجدة الوردية في شرح قصيدة البردية في مدح خير البرية عليه أزكى صلاة البرية».

أنشد الإمام:

وَبِحَقِّ جَاهِكَ إِنَّنِي بِكَ مُغْرَمٌ ... وَاللهُ يَعْلَمُ أَنَّنِي أَهْوَاكَا

أقسم بحق عظمة مكانتك ورفعة قدرك عند الله، أني عاشق لك لا غيرك، كما هو مستفاد من تقديم الجار والمجرور، والله يعلم أني أحبك، قال الله في حقك: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ [الحجر:٧٢] إلى آخر الآية.

وإنما أتى بقوله: (والله يعلم ... إلخ) ليُعلم أنه صادق وتائه في حبِّ طه، الذي تاه فيه ذوو الذوق والعرفان بطه والرحمن، فإن قيل: لِمَ أقسم بحق النبي ﷺ، مع أنه لا يجوز لأحد غير الله عنده! قلت: هذا في قول عنده -والأصح عدم جوازه- أو على عادة العرب.

ولله در القائل:

أنا إنْ أمت بالغرام أمت شهيدً ... يا لقومي بالدموع غسلوني

ثم نادوا عليَّ في كل مآذن ... لا يُصلَّى على قتيل العيون

ليس عار عليَّ إن متُّ وجدًا ... وغرامًا في حب من يُتَيِّمُوني

وقيل:

وبِحُبِّ النبيِّ فابغِ رِضَى اللـ ... ـهِ فَفِي حُبِّهِ الرِّضا والحِبَاءُ

كيف يَصدا بالذَّنبِ قلبُ مُحِبٍّ ... وله ذِكْرُكَ الجميلُ جِلاءُ

هذه عِلَّتي وأنت طبيبي ... ليسَ يَخفَى عليك في القلبِ داءُ

يا نبيَّ الهُدَى استِغَاثَةَ مَلْهو ... فٍ أَضَرَّتْ بحالِه الحوْبَاءُ

لما بيَّن كونه محب الحبيب ومستشفيًا من الطبيب، أراد أن يبين كونه -عليه الصلاة والسلام- منبعًا لنور القمر وضياء الشمس. فقال الإمام ﷺ:

أَنْتَ الَّذِي مِنْ نُورِكَ البَدْرُ اكْتَسَى ... وَالشَّمْسُ مُشْرِقَةٌ بِنُورِ بَهَاكَا

---

(١) رواه الدارمي في سننه (١/ ٣٩).

وفي بعض النسخ بالباء الموحدة.

وإنما خصَّ ذكر اكتساء البدر وإشراق الشمس من نور النبي ﷺ - مع أن العرش والكرسي مخلوقة من نور الأنوار، وسر الأسرار، حضرة أحمد المختار ﷺ- لكونهما أظهر علامات على وحدانية الله العزيز الغفار.

قوله (أنت الذي ... إلخ): إشارة إلى ما جاء في بعض الروايات أنه ﷺ قال: «فالعرش والكرسي من نوري، والكَرُوبيون والروحانيون من الملائكة من نوري، وملائكة السبع السماوات من نوري، والجنة وما فيها النعم من نوري، والشمس والقمر والكواكب من نوري، والعقل والعلم والتوحيد من نوري، وأرواح الأنبياء والرسل من نوري، والشهداء والسعداء من نوري»[1]، [2] وإشارة إلى ما روي عن علي بن الحسين، عن أبيه عن

(١) انظر: محاسن الأخبار (ص٢٨٢)، وسبل السلام في حكم آباء النبي ﷺ للشيخ عمر بالي (ص١٥٥)، وفتح الأقفال للشيخ كنون (ص١٧٩)، ومواكب ربيع للحلواني (ص٤٣)، جميعهم بتحقيقنا.

(٢) روى عبد الرزاق في مصنفه، ورواه البيهقي عن جابر ﷺ بلفظ سألت رسول الله ﷺ عن أول شيء خلقه الله قال: «هو نور نبيك يا جابر خلقه الله، ثم خلق منه كل خير، وخلق بعده كل شيء وحين خلقه أقام قدامه في مقام القرب اثنى عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أقسام خلق العرش من قسم، والكرسي من قسم، وحملة العرش، وخزنة الكرسي من قسم، وأقام الجزء الرابع في مقام الحب اثنى عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أقسام فخلق القلم من قسم، واللوح من قسم، والجنة والنار من قسم وأقام القسم الرابع في مقام الخوف اثني عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أجزاء فخلق الملائكة من جزء، وخلق الشمس من جزء، وخلق القمر والكواكب من جزء، وأقام الجزء الرابع في مقام الرجاء اثنى عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أجزاء، فخلق العقل من جزء، والحلم والعلم من جزء، والعصمة والتوفيق من جزء، وأقام الجزء الرابع في مقام الحياء اثنى عشر ألف سنة، ثم نظر الله سبحانه إليه فترشح النور عرقًا فقطرت منه مائة ألف وعشرون ألفًا وأربعة آلاف قطرة من النور فخلق الله سبحانه من كل قطرة روح نبيٍّ أو رسول، ثم تنفست أرواح الأنبياء فخلق الله من أنفاسهم نور الأولياء والسعداء والشهداء والمطيعين من المؤمنين إلى يوم القيامة فالعرش، والكرسي من نوري، والكروبيون من نوري» بفتح الكاف وتخفيف الراء المضمومة، كما قاله المجد ومنه كروبية منهم ركوع وسجد. وقال الشهاب القليوبي بتشديد الراء، وقد تخفف وهم سادة الملائكة بعد رسلهم. وقيل: إن جبريل ﷺ، وإسرافيل ﷺ، وميكائيل ﷺ منهم وهم سبعون ألف صف حافّون بالعرش يطوفون حوله سمَّوا بذلك؛ لأنهم مقربون فهو من كرب إذا قرب.

وقيل: لأنهم خلقوا من الكرب وهو الحزن؛ لأنهم خلقوا من دموع إسرافيل ﷺ، وما ارتفعت له دمعة منذ خلق؛ لشدة خوفه منه تعالى. وقيل: لتصديهم للدعاء برفع ما نزل بالأمة من الكرب. وقيل: هم ملائكة العذاب يأتون بما فيه كرب وهو العذاب، وعلى كل فقيه من تغييرات النسب ما لم يخفى.

جده أنه ﷺ قال: «كنت نورًا بين يدي ربي قبل آدم بأربعة عشر ألف عام»(١).

ولله در صاحب الهمزية:

رحمـــةٌ كلُّـــهُ وَحَـــزمٌ وَعَـــزمٌ وَوَقَـــارٌ وَعِـــصْمَةٌ وَحَيَـــاءُ

وَسِـــعَ العَـــالَمِين عِلْـــمًا وَحِلْـــمًا فهْـــوَ بحـــرٌ لم تُعْيِـــهِ الأَعبَـــاءُ

لما بيَّن كونه ﷺ منبعًا لنور البدر وضياء الشمس، أراد أن يبيِّن كونه ﷺ سببًا لوجود الأكوان، فقال الإمام ﷺ:

=

قال ﷺ: «والروحانيون من الملائكة من نوري» بفتح الراء وضمها وهم ملائكة الرحمة، وعلى الفتح فهو نسبة إلى الروح بفتحها وهو إما الرحمة؛ لأنهم ينزلون بها وأما الراحة لنزولهم بما فيه راحة وهو الرحمة؛ ولأنهم في تروح أي تفسح إذ ليسوا محصورين في أبنية، لكن هذا يأتي في غير هؤلاء أيضًا، وإما نسيم الريح؛ لأنهم خلقوا منه، كما يقال للمخلوقين من النور نورانيون، وعلى الضم فهو نسبة إلى الروح بضمها وكأنه هنا أمر الله وسره، كما في «القاموس»، ثم يفسر بالرحمة.

وقيل: لأنهم أرواح ليسوا من ماء ولا نار ولا تراب، وهذا يفيد أن الريح يسمى روحًا بالضم ولم أره إلا أن يكون من تغيير النسب، كما أن زيادة الألف والنون فيه كذلك وإذا قوبل الروحاني بالجسماني، فالروحاني ما فيه الروح، والجسماني بخلافه وهو بضم الجيم نسبة إلى الجسمان بضمها وهو الجسم.

ويقال له أيضًا: جثمان بالمثلثة، وزعم بعضهم أن الجسماني بكسر الجيم نسبة إلى الجسم بزيادة الألف والنون فيه ولا داعي إليه.

قال: وملائكة السماوات السبع من نوري والجنة وما فيها من النعيم من نوري، والشمس والقمر والكواكب من نوري، والعقل والعلم والتوفيق من نوري، وأرواح الأنبياء والرسل من نوري، والشهداء والصالحون من نتائج نوري.

ثم خلق الله سبحانه اثني عشر حجابًا، فأقام النور وهو الجزء الرابع في كل حجاب ألف سنة وهي مقامات العبودية، وهي حجاب الكرامة والسعادة، والهيبة، والرأفة والرحمة والحلم، والعلم والوقار والسكينة، والصبر والصدق واليقين، فعبد الله ذلك النور في كل حجاب ألف سنة، فلما خرج النور من الحجب ركبه الله في الأرض، وكان يضيء منه ما بين المشرق والمغرب كالسراج في الليل المظلم.

ثم خلق الله آدم ﷺ في الأرض، وركب فيه النور في جبينه، وفي لفظ في جبهته، ثم انتقل منه إلى شيث ﷺ، ومنه إلى يانش ﷺ، وهكذا كان ينتقل من طاهر إلى طيب إلى أن أوصله الله تعالى إلى صلب عبد الله ابن عبد المطلب ومنه إلى رحم آمنة، ثم أخرجني إلى الدنيا، فجعلني سيد المرسلين، وخاتم النبيين، ورحمة للعالمين، وقائد الغر المحجلين، هكذا بدأوا خلق نبيك يا جابر.

وقد رُوي هذا الحديث بروايات شتى. وانظر [مواكب ربيع ص٥٢].

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٣١٢)

أَنْــتَ الَّــذِي لَــوْلَاكَ مَــا خُلِــقَ امْــرُؤٌ ... كَــلَّا، وَلَا خُلِــقَ الــوَرَى لَوْلَاكَــا

قوله (امرؤ) أي: أحد الورى العالم الحاصل، المعنى: لو لم يكن لأجلك أيها النبي، الحبيب والحسيب النسيب الطبيب، ما خلق الله أحدًا من الإنس والملائكة والجن، بل ولا خُلِقَ العالم، فلم يظهر من نور الحق تعالى القديم إلا نور هذا النبي الكريم: ﴿نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور:٣٥]، وهو الواسطة العظمى في خلق الكائنات، ولم يصدر عن الواحد بلا واسطة إلا واحد، وفي البيت إشارة إلى الحديث القدسي: «لولاك لولاك لما خَلَقْتُ الأفلاك»(١).

اعلم أن هذا الحديث ضعيف السند قوي المتن، كما أفادنا شيخنا الشيخ يوسف الغزي، ولله در القائل:

وَكَيْــفَ تَــدْعُو إِلَى الــدُّنيا ضَرُورَةُ مَــنْ ... لَــولاهُ لَمْ تَخْــرَجِ الــدُّنيا مِــنَ العَــدَمِ

لما بيَّن كونه ﷺ سببًا لخلق العالم أراد أن يُبيِّن عروجه إلى السماء، فقال الإمام ؓ:

أَنْــتَ الَّــذِي لمــا رُفِعْــتَ إِلَى الــسَّمَا ... بِــكَ قَــدْ سَــمَتْ وَتَزَيَّنَــتْ لِــسُرَاكَا

قوله (رُفِعْتَ) بالبناء للمجهول، ولم يذكر الفاعل للعلم به والتعظيم، وضرورة الشعر.

قوله (قد سمت) أي: علتْ وارتفعت إذ السمو: العلو، وفي تقديم الجار والمجرور على المتعلق إشارةٌ إلى أن علو السماء ورفعتها وزينتها لسرى النبي ﷺ لا غير، وإن كانت

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٢١٤)، وقال الشيخ علي المكي: «(لولاك) فالباء داخلة على قول محذوف، (لولاك) كرره للتوكيد (لما) اللام واقعة في جواب لو أو زائدة، وما نافية (خلقت الأفلاك) جمع فلك، وهي سبعةٌ كما هو معلومٌ.

قال ملا علي قاري في كتاب «الموضوعات»: قال الصغاني: إنه موضوعٌ كذا في «الخلاصة»؛ لكن معناه صحيحٌ؛ فقد روى الديلمي عن ابن عباس مرفوعًا: «أتاني جبريل، فقال: يا محمدُ، لولاك لما خُلِقَتِ الجنَّةُ، ولولاك لما خُلِقَتِ النَّارُ». وفي رواية ابن عساكر: «لولاك لما خُلِقَتِ الدنيا»، انتهى.

فعلى هذا فمعناه صحيحٌ، ومبناه غير صحيحٍ، لكن يعضده رواية جابر المشهورة. [فتح الكريم الخالق شرح الدر الفائق في الصلاة على خير الخلائق ﷺ ص ٣٢٩] بتحقيقنا.

مرتفعة ومزينة قبله صورة، لكن له حقيقة تأمل، وفي البيت إشارة إلى عروجه ﷺ من المسجد الأقصى إلى السماء.

روي عن أنس بن مالك ﵁ قال: كان أبو ذر ﵁ يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «**فُرِجَ عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبرائيل فَفَرَج عن صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطشت من ذهب ممتلئ إيمانًا وحكمة فأفرغه في صدري، ثم أطبقه، فلما وصلت بيت المقدس ربط جبريل البراق ودخلت الأقصى، فوجدت قد امتلأ من الملائكة، ورأيت النبيين صفوفًا، فقلت: من هؤلاء، فقال: إخوانك الأنبياء، زعمت قريش أن لله شريكًا واليهود والنصارى ولدًا، هؤلاء المرسلون، هل كان له شريكًا أو ولد**»[1] إلى آخر الحديث.

قال القاضي زكريا الأنصاري في «شرح الروض»: ومن خصائصه ﷺ أنه صلى بالأنبياء ليلة الإسراء؛ ليظهر أنه إمام في الدنيا والآخرة، ثم ركب البراق وطار به بين السماء والأرض:

هَـذَا الـذي رَكِـبَ الـبُرَاقَ مُـيَمِّمًا نحـو الإلـه، فَمَـنْ لهـذا يَعْـدِلِ
هـذا الـذي قَطَـعَ الهَـوَى وكـان في جُـنَحِ الـدُّجَى فـوق السَّمَاءِ يُبَجَّـل
هـذا النَّبِـي الهاشـمي محمـدٌ هـذا هـو المُـدَّثِّرُ المُزَّمِـل
هـذا حَبِيـبُ الله، هـذا أحمـدُ هـذا النـذيرُ الأَبْطَحِـيُّ المُرْسَـل
هـذا الـذي شَرَعَ الـشَّرَائِعَ للـوَرَى هـذا الـذي هـو في البَرِيَّـةِ يَعْـدُل
هـذا الـذي مَنْـهُ الـشفاعةُ تُرْتَجَـى وعليـه مِـنْ دُون الأَنَـامِ مُعَـوَّل

ولله دَرُّ الإمام البوصيري حيث قال في مدح النبي ﷺ:

سَرَيْـتَ مِـنْ حَـرَمٍ لَـيْلاً إلَى حَـرَم كـما سَرَى البَـدْرُ في داجٍ مِـنَ الظُّلَـمِ
وَبِـتَّ تَرْقَـى إِلَى أَنْ نِلْـتَ مَنْزِلَـةً مِـنْ قَـابِ قَوْسَـيْنِ لَمْ تُـدْرَكْ وَلَمْ تُـرَمِ
وَقَـدَّمتْكَ بجَمِيـعُ الأنبيـاءِ بِهَـا والرُّسْـلِ تَقْـدِيمَ مَخْـدُومٍ عَـلَى خَـدَمِ

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٣٥).

وقال البوصيري أيضًا:

فَطَــوى الأَرض ســـائِرًا وَالـــسَمَوا ... ت العُـــلى فَوقَهـــا لَـــهُ إِسراء

فـصف اللَيلـة الَّتـي كـانَ لِلمخـ ... ـتارِ فيهـا عَـلى الـبُراق اسـتِواء

وَتَرقـى بِـهِ إِلى قـاب قَوسـين ... نِ وَتِلـكَ الـسِيادة القَعـساء

حاصل المعنى: قد علت السماء وتزيَّنت لسموك.

لما بيَّن رَفْعَهُ ﷺ إلى السماء، أراد أن يُشير إلى مكانة قدره وجلالة شرفه، وعلو منزلته عند ربه، **فقال الإمام** ﷺ:

أَنْـتَ الَّـذِي نَـادَاكَ رَبُّـكَ: مَرْحَبًـا ... وَلَقَـدْ دعـاكَ لِقُرْبِـهِ وَحَيَّـاكَ[1]

قوله (مَرْحَبًا) أي: جئت إلى مكان رحب، أي: واسع.

اعلم أن المراد من القرب: (القرب المَكَانَتي) لا (المكاني)؛ إذ يلزم منه الحيز، ومن الحيز التجسم، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

قوله: (حَيَّاكَ) أي: قال لك: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾ [النساء:٨٦]، إلى آخر الآية.

قيل: لما وصل جبريل ﷺ بالنبي ﷺ إلى سدرة المنتهى، قال له: «تقدَّم يا محمد، فقال له النبي ﷺ: بل أنت تقدم، قال: يا محمد، ما ينبغي لأحد أن يتجاوز هذا المكان، وأنت أكرم على الله مني، قيل: إن النبي ﷺ قال: لما تقدمت على يميني نظرت إلى ورائي، فلم أرَ جبريل معي، فناديته برفيع صوتي: أخي يا جبرائيل، أفي هذا المكان يُفارق الخليل خليله والأخ أخاه؟ فلم تركتني وتخلفت عني؟ فناداني جبريل ﷺ: يا محمد، يعزُّ علي عزًّا أن أتخلف عنك، والذي بعثك بالحق نبيًّا واصطفاك بالرسالة نجيًّا، ما مِنَّا أحد إلا وله مقام معلوم، ولو أنَّ أحدًا منا تجاوز مكانه لاحترق بالنور، ثم ركب ﷺ الرفرف الأخضر من سدرة المنتهى إلى قاب قوسين، ضوءه يغلب ضوء الشمس، قيل: اخترق ﷺ ليلة المعراج حجبًا لا يعلم عددها إلا الله سبحانه وتعالى، قال: فرأيت مائة ألف صف من الملائكة قيامًا لا يركعون، ومائة ألف صف ركوعًا لا يسجدون، ومائة ألف صف سجودًا لا يرفعون رؤوسهم إلى يوم القيامة، فبينما أنا متفكر من هيبة ما رأيت من جلال جمال كمال عظمة ربي، وإذا النداء: ادن مني يا أحمد، قال: فخطوت خطوة مسيرة خمس مائة عام، فقال: يا أحمد، لا

---

(١) في نسخة: (حباك).

تخف ولا تحزن، قال: فسكن قلبي من روع ما كنت أجد، فلم يزل ذلك الرفرف يدنو بي خطوة بعد خطوة حتى قربني من حضرة سيدي ومولاي، فأبصرتُ أمرًا لا تدركه القلوب ولا النواظر، ولا تحصيه الأفئدة ولا الخواطر، قال: فحار بصري عند ذلك مما غشيه من الأنوار والهيبة والعظمة والجلال، فألهمني ربي أن قلت: التحيات لله والصلوات والطيبات، فقال: سبحانه وتعالى: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فقلت: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، قال الله تعالى: وأنا أشهد أن محمدًا عبدي ورسولي، فمن أحبك فقد أحببته، ومن كذَّبك فقد باء بغضبي، ثم قال: يا أحمد، عَظُمَ شأني وعزَّ سلطاني وارتفع مكاني، ولا إله غيري، أنا الله، أنا ملك الملوك، أنا قاضي الحاجات، مَنْ دعاني أجبته ومن قصدني أعطيته، ومن توكل علي كفيته، ومن قام على بابي قبلته، ومن المحن والآفات نجَّيْته»[1].

لما بيَّن قربه المَعْنِيَّ عند الله أراد أن يُبيِّن مكانه الجلي، فقال الإمام ﷺ:

أَنْـــتَ الَّـــذِي فِينَـــا سَـــأَلْتَ شَـــفَاعَةً   نَـــادَاكَ رَبُّـــكَ: لَمْ تَكُـــنْ لِـــسِوَاكَا

قوله: (فينا) أي: شأننا، (سألت): ربك (الشفاعة)، قوله: (ناداك) أي: أعطاك ربك الشفاعة، لم تكن تلك الشفاعة لأحد غيرك.

اعلم أن شفاعة النبي ﷺ ثابتة بالأحاديث الصحيحة.

قال المحقق الدَّوَّاني: إنه ﷺ يشفع لجميع الإنس والجن، إلا أن شفاعته للكفار لتعجيل فصل القضاء، وللمؤمنين للعفو ورفع الدرجات.

قال العلامة القسطلاني في «المواهب»: الشفاعة خمسة:

الأولى: في الإراحة من هَوْل الموقف، وهي أعظمها وأعمّها.

والثانية: في إدخال الجنة بغير حساب.

والثالثة: فيمن استوجب النار.

والرابعة: في إخراج مَنْ دخل النار، أي من أهل الإيمان.

---

(١) هو حديث قصة الإسراء والمعراج المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والخامسة: في رفع الدرجات.

روي أنه ﷺ قال: «أنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة، تحته آدم ومَنْ دونه ولا فخر، وأنا أول شافع وأنا أول مُشَفَّع يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول مَنْ يحرك حلقة الجنة فيفتح الله فيُدْخِلُنِيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر»(١) انتهى.

وإن أردت تفصيل ذلك فعليك بالمراجعة في كتابنا: «تحفة الوردية في معراج خير البرية»، ولله در القائل:

فَحُزْتَ كُلَّ فَخَارٍ غَيْرَ مُشْتَرَكٍ ... وَجُزْتَ كُلَّ مَقَامٍ غَيْرَ مُزْدَحَمِ
وَجَلَّ مِقْدَارُ مَا وُلِّيتَ مِنْ رُتَبٍ ... وعَزَّ إِدْرَاكُ مَا أُولِيتَ مِنْ نِعَمِ

وقيل:

رُتَبٌ تَسْقُطُ الأَمَانِيُّ حَسْرَى ... دونَهَا مَا وراءهن وَرَاءُ

اعلم أن النور المحمدي حجاب ساتر لنور الحق الحقيقي، ليس بينه وبين الحق تعالى واسطة، كالقميص الذي يلبسه الإنسان على بدنه من غير شيء آخر تحته.

لا يظهر من الحقيقة الإلهية معها إلا ما يظهر من سيدنا محمد ﷺ على التنزيه التام والتقديس العام، فليس بين العارفين المحققين وبين الحق تعالى إلا الحقيقة المحمدية النورية.

ولله در العارف البكري حيث قال في مدح النبي القرشي المكي التهامي المدني ﷺ:

وَأَنْتَ بَابُ الله، أَيُّ امْرِئٍ ... آتِيهِ مِنْ غَيْرِكَ لا يَدْخُلِ

لما بيَّن كونه ﷺ شفيعًا في جميع الأنام، أراد أن يُبَيِّن كونه شفيعًا في الأنبياء العظام عليهم السلام- قال الإمام ﷺ:

أَنْتَ الَّذي لَمَّا تَوَسَّلَ آدَمٌ ... مِنْ زَلَّةٍ، بِكَ فَازَ وَهُوَ أَبَاكَا

والمراد من (الزلة): الهفوة التي صدرت من آدم ﷺ، وهي أكله من الشجرة المنهيَّة عنها، و(بك): متعلق بـ(توسل) أو (فاز) على سبيل التنازع.

(١) رواه الترمذي (٥/ ٥٨٧).

روي «أنه لما خرج آدم عليه السلام من الجنة، رأى مكتوبًا على ساق العرش وعلى كل موضع في الجنة اسم محمد ﷺ مقرونًا باسم الله تعالى، فقال: يا رب، هذا محمد .. مَنْ هو؟ فقال الله تعالى: هذا ولدك الذي لولاه ما خلقتك، فقال: يا رب، بحرمة هذا الولد ارحم هذا الوالد، فنودي: يا آدم، لو تشفعت إلينا بمحمد في أهل السموات والأرض لشفَّعْناك»[1].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما اقترف آدم الخطيئة، قال: يا ربِّ، أسألك بحق محمد إلا ما غفرت لي، فقال الله تعالى: يا آدم كيف عرفت محمدًا ولم أخلقه، قال: لأنك لمَّا خلقتني بيدك ونفخت فيَّ من روحك، رفعتُ رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوبًا (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، فعلمتُ أنك لم تُضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، قال الله تعالى: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إليَّ، وإن سألتني بحقه فقد

---

(١) ذكره القسطلاني في المواهب اللدنية، وقال الخليلي في «فخر الأبرار»: وروى ابن القاسم في سماعه وابن وهب في جامعه عن مالك قال: «سمعتُ أهل مكَّة يقولون: ما من بيتٍ فيه اسم محمد إلا يَمُنَ، ورُزقوا ورُزق جيرانهم». وعنه ﷺ قال: «ما ضَرَّ أحدكم أن يكون في بيته محمدان أو ثلاثةٌ».
وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما اجتمع قومٌ في مشورتهم معهم رجلٌ اسمه محمد لم يدخلوه في مشورتهم لم يبارك لهم» رواه جماعة.
وروى أحمد والبزار والطبراني بسند رجاله ثقاة عن عبد الله بن مسعود: «إن الله نظر إلى قلوب العباد، فاختار منها قلب محمدٍ فاصطفاه لنفسه».
فانظر هذه الأخبار والآثار كيف دلَّت على عظم قدر هذا الاسم، وعلوِّ شأنه، ورفعة مكانه، وقوَّة سلطانه!، وكيف تاب الله على آدم، وحفظ البيت الذي فيه ذلك الاسم، وغفر لمن تسمَّى به! هل هذا إلا لمجرَّد هذا اللفظ وما دلَّ عليه من العجائب والغرائب! وطلب ﷺ من الإكثار في التسمية به، وكيف يمن أهل البيت والجيران الذين فيهم ذلك الاسم، وكيف نزعت البركة بمجرد خروج من اسمه محمدٌ من بين المتشاورين، ولولا ما علمه الله فيه من الخير والبركة والأسرار التي لا تُحصى لما ادَّخره إلى هذا النبيِّ الكريم، وإنما نقلنا هذه الأحاديث وإن لم يتعلق غرضنا الآن بها؛ لأنها كثيرةٌ لا يكاد يستوعبها قلمُ ناسخٍ؛ لأن فيها دلالةً على مقصودنا، ولأجل حصول البركة فيما سنذكره بعد المقصود فيما يؤخذ من هذا الاسم من الأسرار والعجائب التي لا تكاد يصل إليها عقلُ عاقلٍ، ولا يقدر على استقصائها سادةٌ وأفاضل.

غفرت لك، ولولا محمد لما خلقتك»(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» من حديث عبد الرحمن بن أسلم، ورواه الحاكم وصححه.

لطيفة: ذكر العلامة القسطلاني «في المواهب»: رُوي أنه ﷺ لما قال: «حُبِّبَ إليَّ من دنياكم النساء والطيب، وجُعلت قرة عيني في الصلاة»(٢)، قال أبو بكر ﷺ: «وأنا يا رسول الله حُبِّبَ إليَّ من الدنيا: النظر إلى وجهك، وجمع المال للإنفاق عليك، والتوسل بقرابتك إليك، وقال عمر ﷺ: وأنا يا رسول الله حُبِّبَ إليَّ من الدنيا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بأمر الله وقال عثمان ﷺ: وأنا يا رسول الله حُبِّبَ إليَّ من الدنيا: إشباع الجائع، وإرواء الظمآن، وكسوة العاري، وقال علي بن أبي طالب ﷺ: وأنا يا رسول الله حُبِّبَ إليَّ من الدنيا: الصوم في الصيف، وإقراء الضيف، والضرب بين يديك بالسيف»(٣) انتهى.

قال الإمام ﷺ:

وَبِـكَ الخَلِيـلُ دَعَـا، فَعَـادَتْ نَـارُهُ بَـرْدًا، وَقَـدْ خَمَـدَتْ بِنُـورِ سَـنَاكَا

المراد من (الخليل): إبراهيم الخليل بن تارخ، قوله (دعا) أي: ناجى واستغاث وتوسل، قوله (فعادت) أي: صارت نارُ نمرود التي أوقدها لإحراق إبراهيم ﷺ بعد أن دعا بربه بردًا قبل وصوله إليها، قوله (وقد خمدت) أي: انطفأت تلك النار.

قوله (سناكا) أي: رفعتك وشرفك.

حاصل المعنى: إن إبراهيم الخليل ﷺ، لما أُلقي في النار، توسل بالحبيب، غدت ناره بردًا ومخمودة؛ حفظًا لنور النبي النبيل، قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]، والقصة مشهورة، سبحان الملك الجليل الذي صان خليله إبراهيم الخليل من نار نمرود الذليل، وصدَّ عن بيته الحرام أصحاب الفيل، وخلَّص عن الذبح إسماعيل ببركة حبيبه الجميل.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٧٢).

(٢) رواه النسائي (٥/ ٢٨٠)، وذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (١/ ٢٦٥).

(٣) ذكره المحب الطبري في الرياض النضرة (١/ ٢٦٥).

قال الإمام ﷺ:

وَدَعَــاكَ أَيُّــوبٌ لِــضُرٍّ مَــسَّهُ فَأُزِيــلَ عَنْــهُ الــضُّرُّ حِــينَ دَعَاكَــا

قوله (ودعاك) أي: توسل بك إلى ربك، (أيوب): عليه السلام، قوله (مسه) أي: أصابه.

حاصل المعني: إن أيوب عليه السلام لما ابتلي بما ابتلي به -وهو أكلُ الدودِ لحمَهُ الشريف نحوَ ثمانية عشرة سنة على الأصح- توسَّل بالحبيب المختار إلى الله العَفُوِّ الستَّار.

قال الله حكاية عنه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣].

اللهم اختم لنا بحسن الخاتمة، بجاه صاحب الشفاعة في اليوم الطامة والصاخة، محمد الذي أرسلته للأنام رحمة عامة.

قال الإمام ﷺ:

وَبِــكَ المَــسِيحُ أَتَــى بَــشِيرًا مُخْــبِرًا بِــصِفَاتِ حُــسْنِكَ، مَادِحًــا لِعُلَاكَــا

(وبك): لا بأحد سواك، (أتى) أي: جاء.

والمراد من (المسيح): عيسى بن مريم- على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأتم السلام- وللعلماء أقوال في سبب تسمية عيسى عليه السلام مسيحًا، قيل: لأنه مُسِحَ من الأقذار وطُهِّرَ من الذنوب، وقيل: لأنه مسحه جبرائيل بجناحه حتى لم يكن للشيطان عليه سبيل، وقيل: لأنه خرج من بطن أمه ممسوحًا بالدهن، وقيل: مُسِحَ بالبركة، وقيل: كان مسيحَ القدم، لا أخمص له معجزة، له هذا إذا كان الفعيل بمعنى المفعول، مثل: قتيل بمعنى مقتول، وأما إذا كان بمعنى الفاعل، نحو: العليم بمعنى العالم.

قال ابن عباس -رضي الله عنهما- سُمي عيسى عليه السلام مسيحًا لأنه ما مسح ذا عاهة إلا برء.

وقيل: سُمي بذلك لأنه كان يسيح في الأرض ولا يقيم في مكان، وعلى هذا القول تكون الميم زائدة، وقيل: المسيح الصديق ويكون المسيح الدجال بمعنى الكذاب، والكلمة من الأضداد.

وقد سَمَّاه الله تعالى بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران:٤٥]، الآية.

(البشير): بمعنى المبشر، وهو من يخبر الناس بما يَسُرُّهم، وفي البيت إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، الآية.

وإليك قصة لطيفة وهي: ما روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس – رضي الله عنهما- وروى محمد بن إسحاق عن ابن شهاب بإسناده، حديث هجرة الحبشة: لما هاجر جعفر بن أبي طالب ﷺ وأناس من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة، واستقرت بهم الدار، وهاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وكانت بدر بعدما اجتمعت قريش في دار الندوة، وقالوا: إن لنا في الذين هم عند النجاشي من أصحاب محمد ﷺ ثأر مَنْ قُتل منكم ببدر، فاجمعوا مالاً واهدوه إلى النجاشي، لعله يدفع إليكم مَنْ عنده من قومكم، ولْيُنْتَدب لذلك رجلان من ذوي رأيكم، فجهز عمرو بن العاص وعمارة بن أبي معظم الهدايا من الأدم وغيره، فركبا البحر وأتيا الحبشة، فلما دخلا على النجاشي سجدا له وسلَّما عليه، وقالا له: إن قومنا لك ناصحون، شاكرون لك ولصلاحك محبُّون، وإنهم بعثونا إليك لنحذرك هؤلاء الذين قدموا عليك؛ لأنهم قوم رجل كذاب خرج فينا يزعم أنه رسول الله، ولم يتابعه أحد منَّا إلا السفهاء، وإنا كنا قد ضيَّقنا عليهم الأمر، وألجأناهم إلى شِعْبٍ بأرضنا، لا يدخل عليهم أحد ولا يخرج معهم، قد قتلهم الجوع والعطش، فلما اشتد عليهم الأمر بعث إليك ابن عمه ليُفسد عليك دينك وملكك ورعيتك، فاحذرهم وادفعهم إلينا نَكْفِيكَهُم، قالا: وآية ذلك أنهم إذا دخلوا عليك لا يسجدون لك ولا يُحيونك بالتحية التي يحيك بها الناس؛ رغبة عن دينك وسنتك، قال: فدعاهم النجاشي، فلما حضروا صاح جعفر الباب: يستأذن عليك حزب الله، فقال النجاشي: مروا هذا الصائح فَلْيُعد كلامه، ففعل جعفر، فقال النجاشي: نعم، فليدخلوا بأمان الله وذمته، فنظر عمرو بن العاص إلى صاحبه فقال: ألا تسمع كيف يرطنون بحزب الله!! وما أجابهم به النجاشي فساءهم ذلك، ثم دخلوا عليه فلم يسجدوا له، فقال عمرو بن العاص: ألا ترى أنهم يستكبرون أن يسجدوا لك؟ فقال لهم النجاشي: ما منعكم أن تسجدوا لي وتحيوني بالتحية التي يُحَيِّني بها

مَنْ أتاني من الآفاق؟ قالوا: نسجد لله الذي خلقك وملّكك، وإنما كانت تلك التحية لنا ونحن نعبد الأوثان، فبعث الله فينا نبيًّا صادقًا، وأمرنا بالتحية التي رضيها الله، وهي السلام، تحية أهل الجنة، فعرف النجاشي أن ذلك حق، إنه في التوراة والإنجيل، قال: أيكم الهاتف: يستأذن عليك حزب الله؟ قال جعفر: أنا، قال: فتكلم، قال: أنت ملك من ملوك أهل الأرض ومن أهل الكتاب ولا يصح عندك كثرة الكلام ولا الظلم، وأنا أحب أن أُجيب عن أصحابي، فَمُرْ هذين الرجلين فليتكلم أحدهما ويُنصت الآخر، فتسمع محاورتنا، فقال عمرو لجعفر: تكلم، فقال جعفر للنجاشي: سَلْ هذين الرجلين: أعبيدٌ نحن أم أحرارٌ كرام؟ فإن كنا عبيدًا أَبِقْنَا من أربابنا فارددنا إليهم، فقال النجاشي: أعبيدٌ هم أم أحرار؟ فقال عمرو: بل أحرارٌ كرام، فقال النجاشي: نجوا من العبودية، ثم قال جعفر: سَلْهُما: أَهْرَقْنَا دمًا بغير حق فيُقْتَص منا؟ فقال: لا، ولا قطرة، فقال جعفر: سَلْهُما: أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا قضاؤها؟ قال النجاشي: إن كان قنطارًا فعليَّ قضاؤها، فقال عمرو: ولا قيراطًا.

قال النجاشي: فما تطلبون منهم؟ قال عمرو: كنا وهم على دين واحد وأمر واحد، على دين آبائنا، فتركوا ذلك واتبعوا غيره، فبعثنا إليك قومهم لتدفعهم إلينا، فقال النجاشي: ما هذا الدين الذي كنتم عليه والدين الذي اتبعوه؟ اصدقني، فقال جعفر: أما الدين الذي كنا عليه فتركناه فهو دين الشيطان، كنا نكفر بالله ونعبد الحجارة، وأما الذي تحوَّلنا إليه فدين الله الإسلام، جاءنا به رسول من الله وكتاب مثل كتاب ابن مريم، موافقًا له، فقال النجاشي: يا جعفر، لقد تكلمت بأمر عظيم فعلى رسلك .

ثم أمر النجاشي فضرب بالناقوس، فاجتمع عليه كل قسيس وراهب، فلما اجتمعوا عنده، قال النجاشي: أنشدكم بالله الذي أنزل الإنجيل على عيسى عليه السلام، هل تجدون بين عيسى وبين يوم القيامة نبيًّا مرسلاً؟ فقالوا: اللهم نعم، قد بشَّرنا به عيسى، وقال: مَنْ آمن به فقد آمن بي، ومَنْ كفر به فقد كفر بي، فقال النجاشي لجعفر رضي الله عنه: ماذا يقول لكم هذا الرجل؟ وما يأمركم به وما ينهاكم عنه؟ فقال: يقرأ علينا كتاب الله، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويأمرنا بحسن الجوار وصلة الرحم وبر اليتيم، ويأمرنا أن نعبد الله

وحده لا شريك له، فقال: اقرأ عليَّ مما يقرأ عليكم، فقرأ عليهم سورة العنكبوت والروم ففاضت عين النجاشي وأصحابه من الدمع، وقالوا: زدنا يا جعفر من هذا الحديث الطيب، فقرأ عليهم سورة الكهف، فأراد عمرو أن يغضب النجاشي، فقال: إنهم يَسِمُّون عيسى وأمه، فقال النجاشي: ما يقولون في عيسى وأمه؟ فقرأ جعفر عليهم سورة مريم، فلما أتى على ذكر مريم وعيسى رفع النجاشي نفثة من سواكه قدر ما يعدي العين، فقال: والله ما زاد المسيح على ما تقولون مثل هذا.

ثم أقبل على جعفر وأصحابه، فقال: اذهبوا، فأنتم سيوم بأرضي -يقول: آمنون- مَنْ سبكم أو آذاكم غرم، ثم قال: أبشروا ولا تخافوا، فلا هوادة اليوم على حزب إبراهيم، قال عمرو: يا نجاشي، ومَنْ حزب إبراهيم؟ قال: هؤلاء الرهط وصاحبهم الذي جاءوا من عنده ومَنْ تبعهم، فأنكر ذلك المشركون، وادَّعوا في دين إبراهيم، ثم ردَّ النجاشي على عمرو وصاحبه المال الذي حملوه، وقال: إنما هَديتكم إليَّ رشوة، فاقبضاها، فإن الله ملَّكني ولم يأخذ مني رشوة.

قال جعفر: فانصرفنا في خير دار وأكرم جوار، وأنزل الله تعالى ذلك اليوم في خصومتهم في إبراهيم وهو بالمدينة: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨]، هكذا في «معالم التنزيل»[١].

وحاصل المعنى: جاء المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام مبشرًا منه بقدوم سيد الأنام ومصباح الظلم وبدر التمام، لا بأحد غيره من الأنام، ومخبرًا بصفات سيد الأنبياء، مادحًا لرفعة قدر أجلِّ الأصفياء وعلوِّ مكانة أزكى الأتقياء، حبيب الله الذي افتخرت الأرض به على السماء، أحمد، الذي أخذ الله الميثاق على الرسل والأنبياء، قال الله تعالى في تنويه قدر نبيه وتعظيم جلالة صفيِّه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ أي: عهدي ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: النبيون ﴿أَقْرَرْنَا﴾

(١) في (٢/ ٥٢).

بالإيمان وبنصرته، وقبلنا ذلك والتزمناه ﴿قَالَ﴾ أي: الله تعالى ﴿فَٱشْهَدُوا﴾ أي: يشهد بعضكم على بعض ﴿وَأَنَا﴾ أيضا ﴿مَعَكُم﴾ يا معشر الأنبياء ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١](١).

وعن عليٍّ وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم: «ما بعث الله نبيًّا من الأنبياء - عليهم السلام- إلا أخذ الميثاق: لئن بُعث محمد ﷺ وهو حي ليؤمنن به ولينصرنَّه»(٢) وإنما أخذ المواثيق على الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ليعلموا أنه المُقَدَّم عليهم نبوةً، ويدل عليه قوله ﷺ: «كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين»(٣)، وإنه نبيهم ورسولهم، فالنبي ﷺ نبي الأنبياء عليهم السلام، ولهذا صار المختار إمامَ الأنبياء ليلة الإسراء.

وكذلك يكون جميع الأنبياء تحت لوائه كما تقدم، ولو اتفق مجيئه ﷺ في زمن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وغيرهم -عليهم الصلاة والسلام- وجب عليهم وعلى أممهم الإيمان به والحكم بشرعه، ويدل على ما قلنا حكم عيسى عليه السلام بعد نزوله بشرع المختار ﷺ صلَّى عليه الملك الغفار، مادام الليل والنهار، ولله در القائل:

مـا مـضتْ فَـترةٌ مـن الرُّسْـلِ إلَّا بَـشَّرَتْ قومَهـا بِـكَ الأنبيـاءُ
تتباهَى بِـكَ العـصورُ وَتَـسْمو بِـكَ علْيـاءٌ بعـدَها عليـاءُ

ولما بيَّن كونه ﷺ مبشرًا أراد أن يُبيِّن كونه ﷺ متوسلاً للأنبياء، فقال الإمام رضي الله عنه:

وَكَـذَاكَ مُوسَـى لَمْ يَـزَلْ مُتَوَسِّـلاً بِـكَ فِي القِيَامَـةِ مُحْـتَمٍ بِحِمَاكَـا

قوله (كذا) أي: كالأنبياء المتقدم ذكرهم، (لم يزل): موسى بن عمران عليه السلام متوسلاً بك في الدنيا، و(محتمًا بحماك): في القيامة، أو لم يزل متوسلاً بك في القيامة إذا لم تكن (لم) على معناه بل كانت للنفي فقط، تأمل.

روي أن موسى عليه السلام لما رأى فضل أمة محمد ﷺ قال: يا رب اجعلني من أمة محمد(٤).

(١) رواه البغوي في تفسيره (٦٨).
(٢) ذكره ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٤٣٤).
(٣) ذكره المناوي في فيض القدير (٥/ ٥٤).
(٤) ذكره المناوي في فيض القدير (١/ ٤٢٦).

لطيفة: وهي أن (مو) بالعبرانية: الماء، و(سى): الخشب، فصار الأمر كذلك، حيث وُضِعَ في صندوق من خشب وأُلقي في الماء.

كفانا شرفًا بأن جعلنا الله من أمة مصطفى المختار ﷺ، اللهم اختم لنا بحسن الخاتمة يا عزيز يا غفار.

قال الإمام رضي الله عنه:

وَالأَنْبِيَــاءُ وَكُــلُّ خَلْــقٍ فِي الــوَرَى وَالرُّسْــلُ وَالأَمْــلَاكُ تَحْــتَ لِوَاكَــا

وفي بعض النسخ (كل الخلق) بالتعريف، والأنبياء معطوف على ما قبله، الأقرب أو الأبعد، أو مبتدأ و(كل خلق) وما بعده معطوف عليه، و(الخلق): بمعنى المخلوق.

قوله (**في الورى**) أي: العقباء هنا، أو هي والدنيا، تأمل.

وذِكْرُ الرسل والأملاك مع دخولهما في الخلق لشرفهما وفضلهما على سويهما.

(**اللواء**): العلم.

حاصله أن جميع الورى تحت العلم المعقود للنبي المحمود، في اليوم الموعود بأمر الملك المعبود.

روي في الخبر عن سيد البشر أنه لما قال: **«أنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد، تحته آدم ومَنْ دونه ولا فخر»**[1] أي: لا أقول تكبرًا وافتخارًا بل تحدثًا وإظهارًا، لا معناه لا شرفًا، فإنه كفاه شرفًا[2].

---

(١)رواه الترمذي (٥/ ٣٠٨)، وأحمد (١/ ٣٨١)، والحاكم في المستدرك (١/ ٨٣)، والبيهقي في الشعب (٢/ ١٨١)، وأبو يعلى في مسنده (٤/ ٢١٥)، وذكره العجلوني في كشف الخفا (١/ ١٦)، والمناوي في فيض القدير (٦/ ٣٦٤)، وبنحوه..

(٢) اللواء: علم أجلّ من يتقدَّم بالجيوش من نبيٍّ في زمان النبوة، أو خليفةٍ في حضرة الخلافة، أو أميرٍ في موقع الإمارة، أو ملكٍ في زمن الملك، وهو ما يرجع إليه الأتْبَاع من علمٍ مشهود بجمعهم إلى واحدٍ من أعلامٍ متفرقةٍ، فهو علم الأعلام الذي تجتمع إليه الأعلام الجامعة، فهو ﷺ في ذاته لواء حمد ربِّه، واسمه أحمد ومحمد لواء الأسماء، وهو صاحب اللواء يوم القيامة كما قال ﷺ: «أنا صاحب لواء الحمد يوم القيامة، ولوائي يبلغ المشرق والمغرب، والأنبياء والمرسلين كلُّهم تحت لوائي، ولا فخر».
وإنما اختصَّ ﷺ بلواء الحمد بما أشهده الله من كلية أمر الله وخلقه جمعًا، لا مذمَّة فيه، ولا عيب يلحقه، ولا نقص يتطرق إليه من حيث إنه ينظر إليه من هو قائمٌ بقيوميَّة الله حمد في جمعه وبفضله ورتقه وفتقه ووصله وفصله، وإنما يفقد الحمد من ينظر إلى التفضيل والتفريق غير ناشئ عن وحدة جمعٍ، ولا مفروج عن جمع إحاطةٍ، وأصل منفرد واحدٍ، فيتفضَّل له الكون في مدحٍ وذمٍّ من حيث ينحجب

قال الإمام ﵁:

لَـكَ مُعْجِـزَاتٌ أَعْجَـزَتْ كُـلَّ الـوَرَى ... وَفَـضَائِلٌ جَلَّـتْ، فَلَـيْسَ تُحَـاكَى

(المعجزات): جمع معجزة، وهي أمر خارق للعادة، يظهر على يدي نبيٍّ مدعٍ النبوة لتصديق مدعاه.

والخوارق للعادة أربعة: معجزة للنبي، ومنه الإرهاصات قبل النبوة، وكرامة للوليِّ، ومعونة للصَّالح، واستدراج للفاسق.

قوله (أعجزت ... إلخ) أي: جَعَلَتْ تلك المعجزات كلَّ الخلق عاجزة عن عدِّها إلا إذا ساعدتها ميم وحاء ودال، يعني محمدًا ﷺ، ولله درُّ صاحب الهمزية:

قلـما حاوَلـتْ مَـديحكَ إلّا ... سَـاعَدَتْها مِـيمٌ ودالٌ وحَـاءُ

و(الفضائل): جمع فضيلة، قوله (جلت) أي: عظمت، فليست تلك الفضائل تُحكى وتُعد وتُحصى، ولله در القائل:

إنَّ مِـنْ مُعجزاتِـكَ العَجزَ عَـنْ وصـ ... ـفِكَ إذْ لا يَحُـدُّهُ الإحـصاءُ

كيـفَ يَـسْتَوعِبُ الكـلامُ سَـجَايا ... كَ وَهَـلْ تَنْـزِحُ البحـار الرَّكَـاءُ

=

عن مجرى القيومية فيه وسوائها في تكوينه، فلا يكون ذا حمدٍ ولا يزال صاحب مدحٍ أو ذمٍّ مفترقٍ ولا منفرجٍ.

وروى أحمد في المسند (٣/ ٢)، والترمذي (٥/ ٥٨٧) وقال: حسن صحيح، عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، ما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وأنا أول شافع ومشفع ولا فخر». وذكر الشيخ في الفتوحات المكية في الباب الثالث والسبعين في الجواب عن السؤال السادس والسبعين من أسئلة الحكيم الترمذي وهو: ما لواء الحمد بعد أن ذكر أنه حمد الحمد وهو أتم المحامد وأسناها وأعلاها مرتبة وإنه سمى لواء لأنه يلتوي على جميع المحامد فلا يخرج عنه حمد، وإنه لا يكون إلا بالأسماء وآدم ﵇ عالم بجميعها كلها في المقام الثاني من مقامه ﷺ ما نصه: فكان قد تقدم لمحمد ﷺ علمه بجوامع الكلم والأسماء كلها من الكلم ولم تكن في الظاهر لمحمد ﷺ عينا فيظهر بالأسماء لأنه صاحبها فظهر ذلك في أول موجود من البشر وهو آدم ﵇ فكان هو صاحب اللواء في الملائكة بحكم النيابة عن محمد ﷺ لأنه تقدم عليه بوجوده الطيني فمتى ظهر محمد ﷺ كان أحق بولايته ولوائه فيأخذ اللواء من آدم يوم القيامة بحكم الأصالة فيكون آدم فمن دونه تحت لوائه ﷺ وقد كانت الملائكة تحت ذلك اللواء في زمن آدم فهم في الآخرة تحته فتظهر في هذه المرتبة خلافة رسول الله ﷺ على الجميع، انتهى.

لَيسَ مِنْ غايَةٍ لِوَصْفِكَ أَبغيها ولِلْقَوْلِ غايَةٌ وانتهاءُ

والمراد من (المعجزات)[1]: جميع معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

حاصل المعنى: لك معجزات لا لأحد غيرك، إذ معجزات غيرك معجزات لك، أعجزت العالم، كيف لا والعالم مخلوق من نورك الأصيل أيها النبي النبيل، والحبيب الجليل والرسول الخليل، والصفي الجميل.

و(فضائل): عظيمة فليست تُحكى باللسان وتُذكر بالجنان؛ لأنهما مخلوقان من نور عين الأعيان وجوهر الإنسان، وقطب دائرة الزمان وروح أهل الإيمان، وحبيب الرحمن وقِبْلَة أهل العرفان؛ إذ هم يصلون إلى النبي العدنان ﷺ:

أبِذِكْرِ الآياتِ أُوفِيكَ مَدْحًا أيْنَ مِنِّي وأيْنَ منها الوفاءُ

لما بيَّن مجملاً أن للنبي ﷺ معجزات أراد أن يذكر عدة منها، فقال الإمام ﷺ:

نَطَقَ الذِّرَاعُ بِسُمِّهِ لَكَ مُعْلِنًا وَالضَّبُّ قَدْ لَبَّاكَ حِينَ أتاكَا

وفي بعض النسخ (حين لقاكا).

قوله (نطق) أي: تكلم، والمراد من (الطعام): الشاة المسمومة التي سمت زينب اليهودية بنت الحارث زوجة سلام بن مشكم، وقيل زينب أخت عبد الله بن سلام، قوله (بسمه) أي: كونه مسمومًا، (لك): متعلق (بسُمِّه) أو (نطق) على سبيل التنازع، قوله

---

(١) فهو ﷺ المؤيَّد بالمعجزات، وهي جمع معجزة مأخوذة من العجز، وهو ضد القدرة، وعرفًا: هي الأمر الخارق للعادة بقيد أن تكون بعد الرسالة بخلاف ما قبلها، فإنه إرهاص أي: تأسيس لها، وبقي من الأقسام الخارقة للعادة الكرامة، وهي ما يظهر على يد عبدٍ ظاهر الصلاح والمعونة، وهي ما تظهر على يد العوام تخليصًا لهم من شدةٍ نازلةٍ بهم مثلًا، والاستدراج وهو ما يظهر على يد فاسقٍ خديعة ومكرًا به، والإهانة، وهي ما يظهر على يده تكذيبًا له كما وقع لمسيلمة الكذاب، فإنه تفل في عين أعور ليبرأ، فعميت الصحيحة، وتفل في بئرٍ عذبةٍ، فغارت، وصار ماؤها مِلحًا أُجاجًا، فتحصل أن أقسام الأمر الخارق للعادة ستة أقسامٍ. وزاد بعضهم السحر. وقيل: إنه ليس من الخوارق؛ لأنه معتادٌ عند تعاطي أسبابه، انتهى. ومعجزاته كثيرةٌ، لا تعدُّ ولا تُحصى، وأجلُّها القرآن. قال في «الجوهرة»:

ومعجزاتُهُ كثيرةٌ غُرَرٌ منهَا كلامُ اللهِ معجِزُ البشرِ

(معلنًا): أي جهرًا، و(الضب) بفتح الضاد المعجمة وتشديد الباء الموحدة: حيوان بريٌّ يبيض، تصطاده الأعراب وتأكله.

قوله: (لبَّاك) أي: قال لبيك وسعديك، وفي البيت إشارة إلى معجزتين باهرتين دالَّتَين على صدق نبوة الصادق المصدوق:

إحداهما: ما روي عن ابن سلمة عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنهما: إن يهودية أهدت للنبي ﷺ شاة مصلية -أي: مشوية- سَمَّتْهَا، فأكل رسول الله ﷺ وأكل القوم -أي: أرادوا أكله- فقال ﷺ: «ارفعوا أيديكم، فإنها أخبرتني أنها مسمومة، فمات بشر بن البراء، وقال لليهودية: ما حملك على ما صنعت؟ قالت: إن كنت نبيًّا لم يضرك ما صنعت، وإن كنت ملكًا أرحت الناس منك»[1]، فأمر بها -أي بقتلها- فقتلت على الأصح.

فأَذاعَ الذِّراعُ مَا فيه مَن شـ ـرٍّ بِنُطْقٍ إخفاؤُهُ إبداءُ

والثانية: ما رُوي عن عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول الله ﷺ كان في محفل من أصحابه، إذ جاء أعرابي قد صاد ضبًّا، فقال: من هذا؟ قالوا: نبي الله، فقال: واللات والعزى لآمنت بك أو يؤمن بك هذا الضب، وطرحه بين يدي النبي ﷺ، فقال له: «يا ضب، فأجابه بلسان بيِّن يسمعه القوم جميعًا: لبيك وسعديك يا زين من وافى القيامة، قال: من تعبد؟ قال: الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله، وفي الجنة رحمته، وفي النار عذابه، قال: فمن أنا؟ قال: أنت رسول ربِّ العالمين وخاتم النبيين، قد أفلح من صدَّقك وقد خاب من كذَّبك، فأسلم الأعرابي»[2]، وتمام القصة مذكور في السير.

قال الإمام ﷺ:

وَالذِّئْبُ جَاءَكَ وَالغَزَالَةُ قَدْ أَتَتْ بِكَ تَسْتَجِيرُ وَتَحْتَمِي بِحِمَاكَا

قوله (والذئب ...إلخ): الواو استئنافية، قوله (أتت) أي: جاءت خبر، وقوله (تستجير) أي: تطلب الأمان وتستغيث بك، وفي البيت إشارة إلى معجزتين دالتين على صدق رسالة الرسول المختار، أحمد الذي سجدت بين يديه الأشجار، وسبحت في كفه الأحجار:

---

(١) رواه أبو داوود (٤/ ١٧٤).

(٢) رواه الطبراني في معجمه الأوسط (٦/ ١٢٧) بنحوه.

الأولى: مجيء الذئب إلى النبي ﷺ في طائف، والثانية: إتيان الغزالة إلى خدمته ﷺ.

حاصل القصة الأولى: **إن ذئبًا أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن هذا الراعي أخذ أولادي، وأنا عجوز، فأمر رسول الله ﷺ الراعي أن يرد أولاده فردها إلى الذئب.**

والثانية: إن أعرابيًا اصطاد غزالة ووضعها عند رأسه فنام، ثم مرَّ النبي ﷺ بالأعرابي وجابر بن عبد الله وبعلي بن مرة وعبد الله بن جعفر، قالوا: كان لا يدخل أحد الحائط إلا شد عليه الجمل، فلما دخل النبي ﷺ عليه – أي: على الجمل– دعاه، فوضع مشفره في الأرض وبرك بين يديه، فحطم – أي: وضع زمامه الذي يُقاد به– وقال: «ما بين السماء والأرض شيء إلا يعلم أني رسول الله، إلا عاصي الجن والإنس»[1].

وفي خبر آخر: سُئل عن شأنه فأخبروه أنهم أرادوا ذبحه، وفي رواية أن النبي ﷺ قال لهم: **«إنه شكي كثرة العمل وقلَّة العلف»**[2] وفي رواية: **«إنه شكى إلي أنكم أردتم ذبحه بعد أن استعملتموه في شاق العمل»**[3]، فقالوا: نعم.

لطيفة: اعلم أن العارف الواصل إلى الله تعالى لا يرى في الوجود إلا الله، ولا يسمع إلا منه، ولا يتكلم إلا به، وإليه يُشير الحديث القدسي كما في صحيح البخاري: «لا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته -أي: أظهرت حبي له- كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ولسانه الذي ينطق به»[4].

والحاصل أنه جعل سلطان محبته لربه آخذًا لمجامع قلبه، فلا يَهُمُّ إلا بمرضاة محبوبه ولا يخطر بباله إلا جمال مطلوبه، ولله درُّ ابن الفارض ﵁:

ولـــو خطَـــرَتْ لي في سِـــواكِ إرادةٌ   عـلى خـاطري سَـهوًا حكمْـتُ بِـرِدَّتِي

أي: برجوعي إلى حالة المحجوبية، «حسنات الأبرار سيئات المقربين»[5].

---

(١) رواه عبد بن حميد في مسنده (١/ ٣٣٧).

(٢) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ١٥٠).

(٣) ذكره عياض في «الشفا» (١/ ٣١٣)، والسيوطي في «نظم المتناثر» (٧).

(٤) رواه البخاري (٥/ ٢٣٨٤).

(٥) ذكره القاري في المصنوع (١١١)، وفي الموضوعات الكبرى (ص١٨٦)، والشوكاني في الفوائد المجموعة (٧٣٣)، وفي كتابنا أحاديث مشهورة لكنها لا تصح، وعزوه لأبي سعيد الخراز، كما رواه ابن عساكر في ترجمته، وأورده السندروسي في الكشف الإلهي (٣٥١)، وعزاه للزهري.

اعلم أن الله تعالى تجلى لموسى ﷺ تَجَلِّي جلالٍ، ولحبيبه محمد ﷺ تجلي جمال؛ ولذا رآه هو ولم يره هو.

دقيقة: وهي أن أكثر الكائنات احتجبوا بوجودهم عن الشهود صفات الحق، وبشهودها عن الموجود المطلق، ثم منهم مَنْ حُجِبَ عن الله تعالى بالشهوات الدنيوية، والدرجات الأخروية والمقامات العالية، ولو ارتفع الحجاب عنهم لَفَنَوا عن أنفسهم وإراداتهم وبقوا بربهم، فإن الفناء على ثلاثة أوجه:

فناء في الأفعال: ومن هذا قول بعض ساداتنا الصوفية: لا فاعل إلا الله تعالى.

وفناء في الصفات: ومنه قول بعضهم: لا حي ولا عالم، ولا قادر ولا مريد، ولا سميع ولا بصير ولا متكلم على الحقيقة إلا الله.

وفناء في الذات: ومنه قول بعضهم: لا موجود إلا الله، أي: على الإطلاق، ولله درُّ القائل:

فَيَفْنَى ثُمَّ يَفْنَى ثُمَّ يَفْنَى فَكَانَ فَنَاؤهُ عَيْنَ البَقَاءِ

وفي هذا المقام الاضمحلال التام والسُّكر المدام، وإلى هذا يشير قوله ﷺ:

=

قلت: وحُكي أيضًا عن ذي النون المصري، وقد عزاه الزركشي للجنيد، والقرطبي في التفسير (١/ ٣٠٩)، وانظر: كشف الخفاء (١/ ٤٢٨).

فائدة: قال الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني: واختلفوا في الصغائر في حقِّ الأنبياء والكُمَّل والذي عيه الأكثر أن ذلك غير جائزٍ عليهم، وصار بعضهم إلى تجويزها، ولا أصل لهذه المقالة.

وقال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأول الذي ينبغي أن يقال: إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوبٍ من بعضهم، ونسبها إليهم، وعاتبهم عليها، وأخبروا بها عن نفوسهم، وتنصلوا منها، وأشفقوا منها، وتابوا، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرةٍ لا يقبل التأويل جملتها، وإن قبل ذلك آحادها، وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على وجه الندور، وعلى وجه الخطأ والنسيان، أو تأويلٍ دعا إلى ذلك فهي بالنسبة إلى غيرهم حسناتٌ، وفي حقهم سيئاتٌ بالنسبة إلى مناصبهم وعلوِّ أقدارهم؛ إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة.

ثم قال: وهذا هو الحق، ولقد أحسن الجنيد حيث قال: حسنات الأبرار سيئات المقربين؛ فهم صلوات الله وسلامه عليهم وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوبٍ منهم فلم يُخِلّ ذلك بمناصبهم، ولا قدح في رتبهم، بل قد تلافاهم، واجتباهم، وهداهم، ومدحهم، وزكَّاهم، واختارهم، واصطفاهم صلوات الله عليهم وسلامه. وانظر: تفسير القرطبي (١/ ٣٠٩).

«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

أنتم حياتي وأنتم مماتي، وأنتم قبلتي في صلواتي، إذ إذا وجَّهت بكلي جمالكم نور عيني وخيالكم ذكر ذكري، فإذًا ترى سموات القلوب دكًّا من هيبة جمال المتجلي.

وقُصْوَى درجات المحبة كشف الرب الحُجُبَ النفسانية والنقب الإنسانية عن قلب المحبِّ بجمال الذات الربانية، وكمال الصفات الصمدانية، حتى يرى جمال ربه بعين قلبه، وينظر إلى تجلي ربه في مقام عظمته بعين بصيرته، فيفنى عن نفسه وحجبه، ويبقى لبقاء ربه، فيكون محوًا بعدما كان صحوًا، وسكرًا بعدما كان فكرًا، وحاضرًا في حضرة الأقدس بعدما كان غائبًا في غفلة النفس، والمراد التجرد لله تعالى دون الحلول، نعوذ بالله منه، ولله درُّ رابعة العدوية[2]:

تَعْصِي الإِلَهَ وَأَنْتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ ... هَذَا لَعَمْرُكَ فِي الصَّنِيعِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ ... إِنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

ولله درُّ عمر بن الفارض حيث قال:

لَوْ أَنَّ رُوحِي فِي يَدِي وَوَهَبْتُهَا ... لِمُبَشِّرِي بِقُدُومِكُمْ لَمْ أُنْصِفِ

لما بيَّن -رضي الله تعالى عنه- كون البهائم البُهم والبعير البكم مسخرةً لسيد العرب والعجم، أراد أن يُبيِّن كون الأشجار الصم مطيعة لسيد الأنام ومصباح الظلام، محمد سيد الرسل الكرام عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، ما دام الضياء والظلام، فقال رحمه الله تعالى عنه:

وكذا الوحوش أتت إليك وسلمت ... وشكا البعير إليك حين رآكا

قوله: (وكذا) عطف على ما قبله، القريب أو البعيد؛ لكن العطف في كون كل واحد منهما معجزة فقط، إن كان عطفًا على الأصل الأصيل، وفي كون كل منهما حيوانًا إن كان معطوفًا على القريب الأقرب، فتأمل!.

وقوله: (الوحوش) قال الشامي في «سبل الهدى والرشاد» الباب الحادي والمائة في

(١) رواه البخاري (١/ ٢٧).

(٢) وردت تلك الأبيات منسوبة لكل من الشافعي والنابغة الذبياني وأبي العتاهية وذي الرمة وعبد الله المبارك ومحمود الوراق.

وفود السباع إليه ﷺ روى أبو سعيد بن منصور، وأبو يعلى، والبيهقي عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء ذئب إلى رسول الله ﷺ فأقعى بين يديه وجعل يبصبص بذنبه، فقال رسول الله ﷺ: «هذا وافد الذئاب جاء يسألكم أن تجعلوا له من أموالكم شيئًا».

فقالوا: لا والله يا رسول الله، لا نجعل له من أموالنا شيئًا.

فقال إليه رجل من الناس، ورماه بحجر، فسار وله عواء[1].

(وشكا البعير)، تقدم الكلام عليه.

وقال الإمام ﷺ:

وَدَعَوْتَ أَشْجَارًا أَتَتْكَ مُطِيعَةً وَسَعَتْ إِلَيْكَ مُجِيبَةً لِنِدَاكَا

قوله (دعوت) أي: ناديت، قوله (أتتك) أي: أجابتك ولَبَّتْك، مطيعةً منقادةً لأمرك، قوله (سعت) أي: مشت تلك الأشجار مسرعةً إليك حالةَ كونها مجيبة لنداك -إن كان بالكسر- أو لعطائك -إن كان بالفتح-والمراد من (الأشجار): النخلات التي سيجيء بيانها إن شاء الله تعالى، إذ جميع الأشياء مائلة ومتوجهة ومستفيضة من فيوضات منبع الفيض، ومستمدة من معدن المدد، ومستنيرة من مظهر النور.

اعلم أن نور الأنوار محمد المصطفى المختار ﷺ محيط بجميع البلاد الإسلامية، لاسيما طيبة المحميَّة، يشهده الخواص الخيار دون العوام الأبرار، كما دخل الأعمى البيت المُمَوَّه بالذهب والفضة وغيرهما، لا يدري أهو مموه بالذهب أم متطين بالفخار، بخلاف أولي الأبصار، فاعتبروا يا أولي الاعتبار.

أقول لك -تحدُّثًا بنعمة الله لا رياء: كنت جالسًا في المسجد النبوي بعد صلاة العشاء وسد الأبواب، مشغولاً بالذكر، فلما فتحت عيني ما رأيت شيئًا من بنائها، حتى العمود الذي كنت مستندًا إليه إلا النور، فلما رجعت من رتبة الرجال إلى مرتبة النساء والأطفال، وانصرفت من الحال إلى القال، وشاهدت الأشياء كالأحوال يا هول الأهوال.

والواوان عاطفتان، ويجوز أن تكون الأولى استئنافية والثانية عاطفة.

---

(١) انظر: سبل الهدى والرشاد (٦/ ٤٤٠).

اعلم أن (أتت) في قوله (أتتك) بمعنى أجابت، لا بمعنى جاءت، تدبر قوله (لنداك): يجوز أن يكون متعلقًا بـ(أتت) و(مطيعة) أو (سعت) أو (مجيبة) على سبيل التنازع، والكل صحيح، فافهم.

وفي البيت إشارة إلى معجزة باهرة، وهي ما روى أسامة بن زيد ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ في بعض مغازيه: **«هل ترى مكانًا لائقًا بحاجة رسول الله ﷺ؟ فقلت: إن الوادي ما فيه بالناس،** أي: بسبب الناس، **فقال: هل ترى من نخل أو حجارة؟ قلت: أرى نخلات متقاربات، قال: انطلق وقل لهن إن رسول الله ﷺ يأمركن أن تأتين لمخرج رسول الله ﷺ،** أي: لمكان قضاء حاجته، **وقل للحجارة مثل ذلك فقلت ذلك لهن، فوالذي بعثه بالحق، لقد رأيت النخلات تتقاربن حتى اجتمعن، والحجارات تتعاقدن-** أي: ينضم بعضها إلى بعض- **حتى صِرْنَ كالبنيان المعقود، بعضه ببعض حتى صِرْنَ رُكامًا** -بضم الراء المهملة، أي: بعضها فوق بعض- **فذهب خلفهن، فلما قضى حاجته قال لي: قل لهن يفترقن»**[1]، فوالذي نفسي بيده لرأيتهن والحجارة يفترقن حتى عدن إلى موضعهن.

وروي عن بريدة ﷺ: سأل أعرابي النبي ﷺ آية، فقال له: **«قل لتلك** -مشيرًا إلى سمرة كانت ثمة، وهي شجرة عظيمة ذات شوك- **رسول الله يدعوك»، قال: فمالت** الشجرة عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها، فتقطعت عروقها، ثم جاءت تخُدُّ الأرض -أي: تشقها- تجري عروقها مغبرة -أي: مسرعة في مشيها- حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ، فقالت: السلام عليك يا رسول الله، قال الأعرابي: مُرْهَا فلترجع إلى منبتها، فرجعت فدلَّت عروقها- أي: أدخلت في الأرض- فقال الأعرابي: إءذن لي أسجد لك، قال: **«لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»**[2]، وقال: فأذن لي أقبل يديك ورجليك، فأذن له .

قال الشهاب في «شرح الشفا» نقلاً عن الإمام النووي في «الأذكار» أنه يجوز تقبيل اليد والرِّجل من الفاضل للمفضول، إذا كان لزهده وصلاحه أو علمه وشرفه، وليس بمكروه بل يُستحب إذا كان تعظيمه لأمر ديني، فإن كان لأمر دنيوي فهو مكروه، انتهى.

---

(١) ذكره عياض في «الشفا» (١/ ٣٠٠)، والصالحي في «سبل الهدى» (٩/ ٤٩٧).
(٢) رواه ابن ماجه (١/ ٥٩٥)، و ذكره عياض في «الشفا» (١/ ٢٩٩).

وبهذا تعلم ردَّ قول بعض الجهلة عدم الجواز مطلقًا، بل يزعم أنه كفرٌ لجهله بالأحاديث والسير والفقه، نعوذ بالله مما كان فيه وبما حررنا لك تعلم صحة فعل المريدين المخلصين من تقبيل يدي شيخهم ورجليه[1]، ولله در الإمام أبو عبد الله البوصيري، مادح النبي المدني ﷺ، حيث قال:

جاءتْ لِدَعْوَتِهِ الأشجارُ ساجِدَةً ... تمشي إليهِ على ساقٍ بِلا قَدَمِ

كأنَّما سَطَرَتْ سطرًا لِما كَتَبتْ ... فُرُوعُها مِنْ بَديعِ الخطِّ في اللَّقَمِ

اعلم أن النبي ﷺ أُرسل إلى كافة الخلق من الإنس والملائكة والجن وغيرهم.

قال تاج الدين السبكي: بُعِثَ ﷺ إلى الجمادات بعد أن أُحيوا، فآمنوا به، ثم أُخرسوا.

فإن قلت: فما فائدة بعثته ﷺ إلى الملائكة المعصومين؟

قلت: فائدته دخولهم تحت بعثته، وتشرفهم بشرفه.

وبما حررنا تعلم صحة قول الإمام الأعظم والمجتهد الأقدم في قوله: (دعوت أن تكون مأخوذًا): من الدعوة للإسلام، وأن يكون قوله: (أتتك) بمعنى: أجابتك وانقادت لك انقياد المطيع للمُطَاع، وأن يكون المراد من (الأشجار): قلوب العارفين الذين يأخذون الماء وهو الأنوار من عين الحياة وهو النبي المختار، الذي من سره الأسرار ومن نوره يقتبس الأنوار الخيار، ﷺ ما أظلم الليل وأضاء النهار.

حاصل المعنى عندنا: إن سراج الأنام ومصباح الظلام، وبدر التمام وسيد الرسل العظام، محمد المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام دعا قلوب العاشقين الكرام لأخذ الأنوار الفخام من عين قلبه الهمام، إذ هو عين المعاني كالكلام، فأخذوا حظوظهم بالتمام وفازوا فوزًا لا يُضام، ونالوا منازل لا تصل إليها الأفهام، ولهم مقامات فوق المقام، هذا للخواص دون العوام وإياك أن تبقى مع أهل الأوهام، وإنما أطنبت الكلام لأن العاشق لا يُلام، بل لا يقصد ولا يُرام، الحمد لله على الإحسان والإنعام.

وقال الإمام ﷺ:

وَالمَاءُ فَاضَ بِرَاحَتَيكَ وَسَبَّحَتْ ... صُمُّ الحَصَى بِالفَضْلِ فِي يُمْنَاكَا

قوله (فَاضَ...إلخ) أي: نبع وانفجر، (براحتيك) أي: بطون أصابع يديك الكرام،

---

(١) انظر: أوفى ما جمع في ذلك كتابنا: «حجة الفالحين في تقبيل يد النبي ﷺ والصالحين».

إذ الراحة: بطن أصابع اليد، الـ(ـباء) في (براحتيك) بمعنى: مِنْ، إذا كان (فاض) بمعنى: نبع، وبمعنى: الفاء، إن كان بمعنى زاد وكثر، تَدَبَّر.

(وسبحت): مأخوذ من التسبيح، بمعنى: التقديس والتنزيه، الـ(جم): الجماعة، (الحصى): الحجارة، (بالفضل) أي: بفضلك ونبوتك ورسالتك، أو بالثناء على الله تعالى، (في يمناك) أي: في يدك اليمنى.

وفي البيت إشارة إلى آيتين باهرتين دالَّتين على صدق الصادق المصدق:

الأولى: ما رُوي عن أنس بن مالك ﷺ أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر، فالتمس الناس الوضوء -بفتح الواو: اسم للماء الذي يُتَوضَّأ به، ويجوز ضمه- فلم يجدوه، فأُوتي بوضوء فوضع يده فيه، وأمر الناس أن يتوضؤوا منه، قال: فرأيت الماء ينبع من أصابعه، فتوضأ من عند آخرهم، أي: جميعهم.

عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما: عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله ﷺ بين يديه - أي: عنده- في مكان قريب منه ركوة بتثليث الراء المهملة، وهي إناء للماء من جلد كالأباريق، فتوضأ منها، وأقبل الناس نحوه وقالوا له: ليس عندنا ماء إلا ماء في ركوتك، فوضع ﷺ يده في الرِّكوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، انتهى.

فأفضل المياه ماء قد نبع　　بين أصابع النبي المتبع
ونبع الماء عذبًا من أصابعه　　وذي أياد عليها قد جرى النيل
نَبَعَ الماءُ أَثْمَرَ النخلُ في عا　　مٍ بها سَبَّحَ الحصباءُ

قال سالم بن أبي الجعد: قلت لجابر: كم كنتم؟ قال: كنا خمس عشرة مائة، ولو كنا مائة ألفًا لكفانا.

والثانية: ما روى أنس بن مالك ﷺ أنه قال: أخذ النبي ﷺ كفًّا من حصاة -جمع حصوات- وهي صغار الحجارة، فسبَّحْنَ في يد رسول الله ﷺ حتى سمعنا التسبيح، ثم صبَّهن -أي: وضعهن- في يد أبي بكر ﷺ فسبَّحن، ثم في أيدينا فما سبَّحن.

وروى أبو ذر ﷺ وذكر أنهن سبَّحن في كفِّ عمر وعثمان رضي الله تعالى عنهما، حاصل المعنى أن الماء في مواضع كثيرة نبع وتفجر من بين أصابع النبي عليه الصلاة والسلام من الله الرؤوف الرحيم، وقالت صغار الحجارة: سبحان الله بفضل من الله أو تقديس الله، أو شهدت بوحدانية الله أو نبوتك في يدك اليمنى الكريم.

أقول بأذن الله والرسول: المراد من الماء الحياة تسمية المسَبَّب باسم السَّبَب، ومن راحتيك: جسمه الشريف وبدنه اللطيف، على سبيل ذكر الجزء وإرادة الكل، أحيت تلك الحياة قلوب الميتين، أو الرحمة قال الله تعالى عز من قائل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، أو النور الذي زاد وكثر حتى وسع العالمين، فخُلِقوا من ذلك النور، وقد نحى حجة الإسلام الإمام الغزالي في «جواهر القرآن» إلى ما قلنا، حيث قال: خلق الله الأشياء من نور محمد ﷺ - ووردت في ذلك أحاديث كثيرة- أو النور الذي يأخذه الكرام الخيار مِنْ يدي أحمد المختار، ومن سبَّحت الاعتراف والإقرار، ومن جم الحصى القلوب التي كانت أشد قسوة من الحجارة، ثم لانت بالإيمان بالشفيع في يوم القيامة والفضل على ظاهره، ومن يمناك كونه أمينًا مأمونًا، نبيًّا مختارًا، باب الله الذي لا يدخل أحد مما سواه ولا يروم العاشق ما سواه، وحاصله أن حياة القلوب ومخبر الغيوب محمد الحبيب المحبوب، المنزه من الدنس والعيوب، الشافي لأهل الكروب، أحي قلوب العارفين وأقر عيون الذاكرين، قالوا: فيظلون يتكلمون مع النبي ﷺ ويقتاتون بمشاهدة جماله، وربما يتيهون في جلاله ﷺ، ولله در الناظم:

ولـيس غـيرُكَ لِي مَـوْلًى أُؤَمِّلُـهُ ... بَعْـدَ الإلـهِ وَحَسْبِي مِنـكَ تَأْمِيـلُ
ولِي فُـؤَادٌ مُحِـبٌّ لـيسَ يُقْنِعُـهُ ... غـيرُ اللِّقـاءِ وَلا يَـشْفِيهِ تَعْلِيـلُ

وقال الإمام ﷺ:

وَعَلَيْـكَ ظَلَّلَـتِ الغَمَامَـةُ فِي الـوَرَى ... وَالجِـذْعُ حَـنَّ إِلَى كَـرِيمِ لِقَاكَـا

(عليك): لا على أحد غيرك، (الغمامة) بفتح الغين المعجمة: السحاب، لقد سها العصام حيث قال: الغمامة، مثل الغمامة؛ لأن هذا بالكسر وذاك بالفتح، (والجذع) بكسر الجيم وسكون الذال المعجمة: ساق النخلة اليابسة، وقيل: إنه لا يختص به؛ لقوله تعالى:

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ [مريم:٢٥] وتعريفهما للعهد:

الأولى: السحابة التي كانت تظلل النبي ﷺ وتقيه حر الشمس.

والثانية: حنين الجذع الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ حين لم يكن المنبر متخذًا له، فلما صُنع له المنبر وخطب عليه رسول الله ﷺ سمَّعه للجذع حنينًا سنذكر حديثه إن شاء الله تعالى، والحنين بفتح الحاء المهملة: صوت كالأنين يكون عند الشوق لمن يهواه إذا فارقه، أو من المفارقة، ولله درُّ الناظم:

وَالمَــرْءُ يَــشْتَاقُ الــدِّيَارَ وَأَهْلَهَــا وَحَنِينُـــهُ أَبَـــداً لأَوَّلِ مَنــــزِلِ

وفي البيت إشارة إلى حديثين:

الأول: ما رواه الواقدي وابن سعد وابن عساكر في «تاريخه» عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن حليمة رأت غمامة تظله وهو ﷺ عندها، رُوي ذلك عن أخيه من الرضاعة[1].

ذكر العلامة شيخ زاده في «شرحه للقصيدة البردية»: أن أبا طالب أراد الخروج في قريش إلى الشام، فلما تهيأ للرحيل صبَّ به رسول الله ﷺ، فرقَّ له أبا طالب، وقال: والله لأخرجنه معي، وكان من عمره اثني عشر سنة، فكلَّم أبو طالب أخوته وإخوانه، وقالوا: أمثل هذا الغلام يخرج؟ فكاد أبو طالب يخلفه حين كلف فيه فرآه يومًا يبكي، فقال له: ما بالك يا ابن أخي؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال له: لعل بكائك أني أخلفك؟ فقال: نعم، فقال أبو طالب: والله لا أفارقك أبدًا، فخرج به، فلما نزلوا بصري الشام، وبها راهب في صومعة، وكان من علماء النصارى، فصنع لهم طعامًا ودعاهم إليه، وإنما حمله على ذلك لأنه حين رآهم رأى غمامة تظلل رسول الله ﷺ، فلما نزل أبو طالب تحت الشجرة ظلَّت الغمامة على الشجرة، ثم قال لهم الراهب: أحب ألا يتخلف منكم أحد، فحضروا كلهم إلا رسول الله ﷺ، فنظر الراهب إلى الغمامة وهي واقفة عليه، فقال: ألم أقل لكم لا يتخلف منكم أحد؟ فقالوا: ما تخلف إلا غلام حديث السن، فقال الحارث بن عبد المطلب: كيف يتخلف ابن عبد المطلب؟ فجاء به وأجلسه على الطعام، فنظر إلى الغمامة جاءت معه، ثم

---

(١) ذكره السخاوي في «المقاصد الحسنة» (١/ ٣٥).

قال لأبي طالب: ما هذا الغلام منك؟ فقال: ابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: هلك وأمه حبلى، قال: صدقت، قال: فما فعلتْ؟ قال: هلكت، قال: صدقت، فلما أكلوا قال لرسول الله ﷺ: بحق اللات والعزى ألا أخبرتني؟ فقال رسول الله ﷺ: لا تسألني باللات والعزى، فوالله ما أبغض شيئًا مثلهما أبغضها، قال: فبالله ألا أخبرتني؟ فقال رسول الله ﷺ: سلني، فسأله عن أشياء من أحواله حتى يؤمن، فأخبره، فوافق ذلك ما عنده، ثم نظر في عينيه فسأله: هل يزيد حمرتها؟ فقال: لا يفارقه، فقال: انزع عن جنبيك، فأبى عليه حتى قال له أبي طالب: انزعها، فنظر إلى الخاتم بين كتفيه وجعل وعيناه تهرقان بالدموع، ثم قال لأبي طالب: إن ابن أخيك يكون نبي هذه الأمة، وإني أخاف عليه من اليهود فارجع به سريعًا إلى مولده وقد أخذ علينا فيه المواثيق، فقال: من أخذه؟ فتبسم الراهب وقال: أخذه الله علينا في كتابه الذي أنزل على عيسى ابن مريم ﷺ، انتهى.

اعلم أن حديث حنين الجذع مشهور؛ إذ رواه بضعة من الصحابة، منهم جابر بن عبد الله وعبد الله بن عمر وأنس بن مالك وأبي بن كعب رضي الله تعالى عنهم.

قال جابر ﷺ: كان المسجد - أي مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة- مسقوفًا على جذوع نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوت العشار، العشار بكسر العين المهملة: جمع عشراء، وهي الناقة التي أتى على حملها عشرة أشهر.

وفي رواية أنس: حتى ارتج المسجد لخواره، أي: صياحه، وفي رواية سهل: وكثر بكاء الناس لما رأوا به، وفي رواية المطلب وأبيّ: حتى تصدع وانشق -وانشق: عطف تفسير لتصدع، تدبر- حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليه فسكت، زاد غيره: فقال النبي ﷺ: «إن هذا بكاء لما فقد من الذكر»[1].

وفي حديث بريدة - بالتصغير- فقال: «إن شئت أن أردك إلى الحائط الذي كنت فيه، ينبت لك عروقك ويكمل خلقك ويجدد لك خوص وثمرة - والخوص بضم الخاء

---

(١) ذكره القرطبي في «الإعلام» (ص٣٥٨).

المعجمة وسكون الواو: واحدة خوصة، وهي كالورق للنخلة- **وإن شئت أغرسك في الجنة فيأكل أولياء الله من ثمرك، ثم أصغى له يستمع ما يقول، فقال: بل تغرسني في الجنة** -أي تجعلني من غراس الجنة- **فيأكل مني أولياء الله وأكون في مكان لا أبلى فيه، فسمعه من يليه، فقال النبي ﷺ: قد فعلت، ثم قال: اختار دار البقاء على دار الفناء»**[1]. فلله در القائل[2]:

دنَـا إِليـه حَنِيـنُ الجِـذْعِ مِـنْ شَـغَفٍ ... إِذْ نالَـهُ مِنْـهُ بَعْـدَ القُـرْبِ تَزْيِيـلُ

فكان الحسن البصري رحمه الله تعالى إذا حدَّث بكى، وقال: يا عباد الله، الخشبة تحنُّ إلى رسول الله ﷺ لمكانه، أي: لشرف قدره وعلوِّ مقامه، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه ﷺ.

قال الإمام ﷺ:

وَكَـذَاكَ لَا أَثَـرٌ لِمَـشْيِكَ فِي الثَّـرَى ... وَالصَّخْرُ قَـدْ غَاصَـتْ بِـهِ قَـدَمَاكَا

قوله (وكذا)[3]: عطف على ما قبله، القريب أو البعيد، لكن العطف في كون كل واحد منهما معجزة فقط، إن كان عطفًا على الأصل الأصيل، وفي كون كل منهما جمادًا إن كان معطوفًا على القريب الأقرب، تأمل.

(لا أثر) أي: لا تأثير لمشيك، (في الثرى) أي: في التراب الندي الذي يظهر فيه تأثير قدم كل واحد غيرك، (والصخر): الحجر، و(غاصت) إن كان بالضاد المعجمة: بمعنى نقصت، والباء زائدة، وإن كان بالصاد المهملة بمعنى: أثر، والباء بمعنى: في، تَدَبَّر، باعتبار المضاف إليه لا المضاف، لا يُقال: باعتبار المضاف؛ لأنه جمع بحسب المعنى، إذ الكل هنا بمعنى الجميع لا الجماعة، وإن كان بالبناء للفاعل فالتاء للخطاب.

وقال الإمام ﷺ:

وَشَـفَيْتَ ذَا العَاهَـاتِ مِـنْ أَمْرَاضِـهِ ... وَمَـلَأْتَ كُـلَّ الأَرْضِ مِـنْ جَـدْوَاكَا

---

(١) ذكره القرطبي في «الإعلام» (ص٣٥٧).
(٢) البيت للبوصيري كما في ديوانه.
(٣) في نسخة: (هذا).

قوله (من جدواك) أي: أجلك أو فضلك، إن كان (ملأت) بالبناء للفاعل، والكل صحيح.

روى ابن أبي شيبة عن أم جندب: إنه ﷺ أتته امرأة من جشعم، معها صبي به بلاء لا يتكلم، فأوتي بماء فمضمض فاه وغسل يديه، ثم أعطاه إياها، وأمرها بسقيه ومس به فبرأ الغلام وعقل عقلاً يفضل عقول الناس(١).

قال القاضي العياض في «الشفا»: انكفأت – أي: انقلبت– القدر على ذراع محمد ابن حاطب وهو طفل، فمسح عليه ودعا له وتفل عليه فبرأ لحينه. ورواه البيهقي والنسائي والطيالسي مسندًا مصححًا(٢).

واعلم أن الأخبار التي وردت في كونه ﷺ فضلاً ورحمةً كثيرةٌ شهيرة، منها ما يُروى عن كعب الأحبار، وهو: إنه كانت قريش في شدة من الزمان وقحط فسُمِّيت السنة التي حمل فيها رسول الله ﷺ سنة الفتح والابتهاج، وذلك إنه اخضرت لهم الأرض وآتاهم المبرة -أي: الطعام- من كل جانب فأخصبوا ببركته قبل ولادته، وأصبح عرش عدوِّ الله إبليس منكوسًا، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٧]، ولله در القائل:

وما مُحَمَّدُ إِلَّا رَحمَةٌ بُعِثَتْ ... لِلعالَمِينَ وفَضلُ اللهِ مَبذُولُ

وحاصل المعنى: أشفيت أيها الشافي صاحبي الأمراض المزمنة من أمراضهم المؤلمة، وملأت كل الأرض من فضلك وكرمك وجودك وإحسانك، وفي بعض النسخ (شفَّيت) بالتشديد.

أقول: يحتمل أن يكون المراد من قوله (ذا العاهات): العشاق إذ داء العشق أشد وأصعب من غيره، ومن (كل الأرض): قلوبهم، فالحاصل عندنا: أبرأت العشاق من

---

(١) في «الشفا» لعياض (١/ ٣٢٤)، ورواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (٣٨٥)، والبيهقي في «الدلائل» (٢٤٢٥)، والطيالسي (١٢٧١).
(٢) في «الشفا» لعياض (١/ ٣٢٤).

أمراضهم المزمنة بأن تجليت لهم تجلي جمال، فنظروا إلى جمالك فعُوفوا من أمراضهم وملأت قلوبهم من أنوارك التي وسعت أهل الأرض والسماوات والجنة وغيرها، اللهم احشرنا تحت لوائه.

قال الإمام ﷺ:

وَرَدَدْتَ عَيْنَ قَتَادَةً بَعْدَ العَمَى وَابْنُ الحُصَيْنِ شَفَيْتَهُ بِشِفَاكَا

قوله (رددت) أي: رجعت، (عين قتادة): ابن النعمان بعد أن وقعت على وجنته، أي: حده في غزوة أحد، هذا شروع في تفصيل إبرائه ذا العاهات(١).

قال العياض في «الشفا»: وأصيبت يومئذ -أي: يوم وقعت أحد على الصحيح، وقيل: يوم البدر، وقيل: يوم الخندق- عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته فَرَدَّها رسول الله ﷺ بيده فكانت أحسن عينيه.

روي أن عينيه أصيبتا، فيكون التعبير عن العضوين المتفقين ذاتًا واسمًا بأحدهما، وهو فصيح مشهور، يُقال: نظر بعينه ومشي بقدمه، كما حرره النُّحاة في محله.

وروي أنه ﷺ قال له: «إن شئت رددتها لك، وإن شئت فاصبر ولك الجنة»، فقال: يا رسول الله إن الجنة لَعَطَاء جزيل جميل ولكني أكره العور، فردَّها واسأل الله تعالى لي الجنة، فردَّها ودعا له.

ولله در عاصم بن عمر بن قتادة حيث قال بداهة حين وفد على عمر بن عبد العزيز ﷺ ونفعنا الله به:

أَنَا ابنُ الذي سَالتْ على الخدِّ عينُهُ فَرُدَّتْ بكفِّ المصطفى أيَّما ردِّ
فعادتْ كما كانتْ لِأَوَّلِ أمرِها فيا حُسْنَ ما عينٍ ويا حُسْنَ ما ردِّ

وابن الحصين: كلثوم الذي رُمِيَ يوم أحد في نحره فبصق رسول الله ﷺ فيه فبرأ، والحصين بضم الحاء وفتح الصاد المهملتين: مصغر حصن، وهو أبو رهم الغفاري

(١) رواه البيهقي في الدلائل (١١١٠)، وذكره عياض (١/ ٣٢١).

الصحابي، وهو من أصحاب الشجرة، وشهد أُحدًا، واستخلفه رسول الله ﷺ عام الفتح، كذا قاله الشهاب في «شرح الشفا».

قال الإمام ﷺ:

وَكَــذَا خُبَيْـــبٌ وَابْـــنُ عَفْـــرَا بَعْـــدَمَا   جُرِحَـــا شَـــفَيْتَهُمَا بِلَمْـــسٍ يَـــدَاكَا

و(خبيب) بضم الخاء المعجمة: مصغر خب[1]، (عفراء) بعين مهملة وفاء ساكنة وراء مهملة، ومُدَّتْ على زينة حمراء، هي بنت عبيد بن ثعلبة النجارية[2]، و(بعدما): ظرف لـ(شفيتهما)، و(جُرِحَا): على صيغة المجهول، و(الألف): نائب الفاعل، و(الباء): سببيَّة، والجار والمجرور متعلق بـ(شفيتهما).

ذكر العياض في «الشفا»: إن خبيب بن يساف بكسر الياء التحتية والسين المهملة، ويقال: إساف -بهمزة مكسورة- أُصيب -بالبناء للمجهول- يوم بدر مع رسول الله ﷺ على عاتقه -أي كتفه- حتى مال شقه، فرده رسول الله ﷺ -أي: رد عضوه إلى مكانه الذي كان- ونفث عليه حتى صحَّ - أي: التأم- وعاد كما كان.

وذكر الشهاب في «شرح الشفاء»: إن الخبيب شهد بدرًا وأُحدًا، وكان بالمدينة حين قدم رسول الله ﷺ، وتأخر إسلامه حتى سار رسول الله ﷺ إلى بدر فلحقه وأسلم، وشهد بدرًا فضربه رجل على عاتقه يومئذ فمال شقه، فأتى رسول الله ﷺ فتفل عليه وردَّه فالتأم، فانطلق وقتل الذي ضربه وتزوج ابنته بعد ذلك، هذا من جملة الغرائب.

قال الإمام ﷺ:

وَعَــلِيٌّ مِـــنْ رَمَـــدٍ بِـــهِ دَاوَيْتَـــهُ   فِي خَيْـــبَرَ فَـــشُفِي بِطِيـــبِ لَمَاكَـــا

(وعلي): معطوف على خبيب أو ابن عفراء، و(من رمد): متعلق بـ(داويته) أو

---

(١) شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وتوفي في خلافة عثمان ﷺ انظر: الاستبصار (١٨٦).

(٢) عفراء بِنْت عُبَيْد بن ثعلبة بن سواد بن غنم بن مالك بن النجار الأنصاريَّة، أم مُعاذ ومعوّذ وعَوْف، وبها تعرف أولادها، وكلهم من الأنصار.

قال ابن الكلبي: قتل مُعاذ ومعوذ يومئذٍ - يعني يوم بدر - فجاءت أمهما إلى النَّبِيّ صلّى الله عليه وسلّم فقالت لعَوْف ابنها: يا رسول الله، هذا شرّ بنيّ. فقال: «لا. ولم يُعقّب مُعاذ ومعوّذ، وإنما الولد لعَوْف». وقال غير الكلبي: إن مُعاذًا لم يقتل يوم بدر على ما ذكرناه في اسمه، والله أعلم. وبايعت أمه النَّبِيّ ﷺ، قاله ابن حبيب. وانظر: أسد الغابة (٣/ ٣٨٦).

(شفي)، و(به): متعلق بكان أو كائن، و(في خيبر): ظرف للفعلين أو لمحذوف، والأول أولى، فـ(شفي) بالبناء للمجهول، والمراد من (الطيب) هنا بزاقه الشريف، قوله (فماكا[1]) أي: في فيك، على تقدير حذف الجار والتثنية للقافية.

وحاصل القصة كما قال القسطلاني، نقلاً عن البخاري في قصة غزوة خيبر: وكان علي بن أبي طالب ﷺ تخلف عن النبي ﷺ، وكان رمدًا، فلحقه، فلما انتهى إلى الليلة التي فتحت، قال: «لأعطينَّ الراية غدًا أو لَيَأْخذن الراية غدًا رجل يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجون أن يُعْطَاها، فقال: أين علي بن أبي طالب ﷺ؟ فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: فأرسلوا إليه، فأُوتي به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرء، حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، فقال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادْعُهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن يكون حُمر النعم»[2]، انتهى. ففتح الله على يديه خيبر.

قال الإمام ﷺ:

وَسَأَلْتَ رَبَّكَ فِي ابْنِ جَابِرَ بَعْدَمَا ... أَنْ مَاتَ أَحْيَاهُ وَقَدْ أَرْضَاكَا

قوله (في ابن جابر) أي: في إحيائه، قوله (بعدما أن مات) أي: بعد موته، قوله (أحياه) أي: أحياه الله تعالى، قوله (وقد أرضاك) أي: جعلك راضيًا، كيف لا وقد خلق الله الخلق لأجلك.

في البيت إشارة إلى معجزة باهرة، وهي أن الله تعالى أحيا ابن جابر بن عبد الله - رضي الله تعالى عنهما - معجزةً لحبيبه وإكرامًا لصفيِّه.

حاصل القصة: إن زوجة جابر بن عبد الله كانت في خدمة رسول الله ﷺ، وقع ابن جابر في النار فاحترق ومات، فلما رأى رسول الله ﷺ ما بهما من الألم دعا رب العالمين، فأحياه الله ببركة سيد المرسلين، الحمد لله رب العالمين.

---

(١) هذا ما أثبته الشارح، أما في أكثر نسخ المتن (لماكا) أي: شفتيه ﷺ.

(٢) رواه البخاري (٣/ ١٠٧٧).

قال الإمام ﷺ:

وَمَسَسْتَ شَاةً لأمّ مَعْبَدَ بَعْدَمَا نَشَفَتْ فَدَرَّتْ مِنْ شِفَا رُقْيَاكَا

قوله (مسست) أي: لمست، قوله (نشفت) أي: بعدما صارت ناشفة يابسة، قوله (فدرت) أي: صارت دَارَّة، أي: ذات لبن من لمس يدك الشريف.

حاصل القصة: إن رسول الله ﷺ لما هاجر من مكة المعظمة مع أبي بكر ﷺ نزل في خيمة أم معبد، فقال رسول الله ﷺ: «يا أماه، هل عندكم من لبن؟ قالت: لا، وكانت تحت الخيمة نعجة عرجاء، وما كان بها من لبن، فدعا رسول الله ﷺ ومسَّ ثدييها فدَرَّت، وكان اللبن ينزل من ثدييها مثل ماء العيون، فشرب هو والصديق وبقي القدح ملآنًا»[1]، والقصة بتمامها مذكورة في كتب السير.

قال الإمام ﷺ:

وَدَعَوْتَ عَامَ القَحْطِ رَبَّكَ مُعْلِنًا فَانْهَلَّ قَطْرُ السُّحْبِ حِينَ دَعَاكَا

قوله (دعوت ... إلخ): ناجيت ربك في سنة الجدب والقحط والغلاء، والشدة والضراء جهرًا، فظهر قطع السحب حين سمع دعاك ونداءك.

(عام): مفعول فيه منصوب على الظرفية بتقدير (في) كما أشرنا إليه بالتفسير، والفاء لمجرد العطف لا التعقيب، إذ روي أن النبي ﷺ لما قحط الناس ومسك المطر قام إليه رجل وهو يخطب الجمعة على منبره، فقال: يا رسول الله، قحط المطر واحمرَّ الشجر، فادعُ لنا، فرفع يديه ودعا الله أن يسقيهم الغيث، فما استتم دعاءه حتى نشأت سحابة فأمطرت من الجمعة إلى الجمعة، فقام إليه في الجمعة الأخرى ذلك الرجل -أو غيره- وهو يخطب، فقال: يا رسول الله تهدمت البيوت وانقطع السبيل، فادع الله لنا، فرفع النبي ﷺ يديه، وقال: «اللهم حوالينا لا علينا»[2] فانجاب السحاب عن المدينة.

لما بين ﷺ بعض معجزة المختار أراد أن يُبين دعوة الخلق إلى العزيز الغفار.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٤٢٤٣) وأبو نعيم في الدلائل (٣٦٧٥)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٧٧٦)، والشامي في سبل الهدى (٣/ ٢٤٤).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٧٣).

قال الإمام ﷺ:

وَدَعَـوْتَ كُـلَّ الخَلْـقِ فَانْقَـادُوا إِلَى ... دَعْـوَاكَ طَوْعًـا سَـامِعِينَ نِـدَاكَا

قوله (الخلق) أي: جميع المخلوق (فانقادوا): فأطاعوا، يتعدى إلى مفعوله بإلى، يُقال: انقاد إليه، وباللام يُقال: انقاد له طوعًا غير كرهًا، سامعين مجيبين وملبين (دعواك): أمرك.

اعلم أن ضمير انقادوا راجع إلى الخلق على سبيل التغليب لا على العموم؛ لأن عاصي الإنس والجن ما انقادوا لأمره.

واعلم أن بعثة النبي ﷺ إلى الجن كالإنس، ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، أما الكتاب قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

وقد اتفق المفسرون على دخول الجن في هذه الآية، وهو مدلول لفظها فلا يخرجون عنها إلا بدليل، ولا دليل على خروجهم، وقال الله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف:٣١]، فأمر بعضهم بعضًا بإجابته دليلاً على أنه داع لهم ومبعوث إليهم.

وأما السنة ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ: إن رسول الله ﷺ قال: «فضلت على الأنبياء بست»(١)، فذكر منها: «وأرسلت إلى الخلق كافة»(٢)، فإنه يشمل الجن والإنس، وحمله على الإنس خاصة تخصيص بغير دليل، وإلى الملائكة في أحد القولين، وإلى هذا أشار الإمام الأعظم والمجتهد الأقدم، الإمام الصفي والحبر الوفي أبو حنيفة الكوفي في هذا البيت، ورجحه تاج الدين السبكي، قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

ولا نزاع أن المراد من العبد هاهنا محمد ﷺ، والعالم ما سوى الله تعالى، فتشمل جميع المكلفين من الجن والإنس والملائكة وغيرهم، فَبَطَلَ بذلك قول من قال: إنه كان رسولاً إلى بعض دون بعض؛ لأن لفظ العالمين يتناول جميع المخلوقات، فتدل الآية على أنه رسول جميع الخلق.

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٧١).

(٢) رواه مسلم (١/ ٣٧١).

وقال بعضهم: المراد من العالمين الجن والإنس دون الملائكة؛ لأنهم معصومون، فلا فائدة في البعثة إلى المعصوم، قلنا: فائدته دخولهم تحت بعثته وتشرفهم بشرفه.

قال الإمام ﷺ:

وَخَفَضْتَ دِينَ الكُفْرِ يَا عَلَمَ الهُدَى وَرَفَعْتَ دِينَكَ فَاسْتَقَامَ هُنَاكَا

قوله **(خفضت)** أي: جعلت الكفر مخفوضًا، قوله **(ورفعت)** أي: جعلت دينك المقبول عند الله الذي هو الإسلام: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، مرفوعًا معززًا، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣].

اعلم أن الخافض والرافع هو الله تعالى لا غير، ونسبت الفعلين هنا -أعني خفضت ورفعت- إلى النبي ﷺ مجازًا، وقد وضَّحنا بيان بقاء شرعه ﷺ إلى يوم القيامة في «**بحر اللآلى في شرح بدء الأمالي**»، فعليك بالمراجعة.

قال الإمام ﷺ:

أَعْدَاكَ عَادُوا فِي القَلِيبِ بِجَهْلِهِمْ صَرْعَى وَقَدْ حُرِمُوا الرِّضَا بِجَفَاكَا

قوله **(أعداك ... إلخ)**: عدو، **(في القلوب)**: متعلق بعادوا، والمراد: من عداوتهم النبي ﷺ، **(في القلوب)**: السر والنجوى دون الإضمار في قلوبهم؛ لأنهم عادوه ظاهرًا وباطنًا، وإضافة الجمع إلى هم إضافة المصدر إلى الفعل، **(صرعى)** أي: بطلاً، و**(حرموا)** بالبناء للمجهول، والألف واللام في **(الرضا)**: عوض عن المضاف إليه، أي: رضاء الله، والباء في قوله **(بجفاك)**: سببية.

وحاصل المعنى: إن أعداء النبي ﷺ، مثل أبي جهل وعتبة والوليد وغيرهم، عادوه بأن جمعوا بطلاً من صناديد قريش لعداوته ومحاربته ﷺ، وقد حرمهم الله تعالى الرضاء بسبب جفائهم الحبيب. **قال الإمام ﷺ:**

فِي يَوْمِ بَدْرٍ قَدْ أَتَتْكَ مَلَائِكٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ قَاتَلَتْ أَعْدَاكَا

قوله **(في يوم ... إلخ)**: متعلق بـ**(أتتك)**، و**(ملائك)** فاعله من عند متعلق به، والمفاعلة ليست على بابه، بل بمعني المجرد، تدبر.

وفي البيت إشارة إلى غزوة بدر الكبرى.

قال ابن كثير: وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام ودمغ فيه الشرك وحزب

محله، وهذه أعظم غزوة في الإسلام؛ لأن الله أعزَّ حبيبه سيد الأنام وبدر التمام، محمد المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، ومن معه من أصحابه البررة الكرام، عليهم الرضوان من الملك العلام(١).

و(البدر): اسم لقرية مشهورة، وكان خروجهم يوم السبت لاثني عشرة خلت من رمضان، وقيل لثمان خلون منه، واستخلف أبا لبابة الأنصاري، وخرج معه الأنصار ولم تكن قبل ذلك خرجت معه، وكان عدة من خرج معه ﷺ ثلاثة مائة وخمسة، وثمانية لم يحضروها إنما ضرب لهم بسهمهم وأجرهم، فكانوا كمن حضرها، وكان المشركون ألف، وقيل تسعمائة، وكان قتالهم يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان، وقيل يوم الإثنين، وقيل غير ذلك، وكانت من غير قصد من المسلمين إليها ولا ميعاد، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال:٤٢].

وإنما قصد ﷺ التعرض لعير قريش، وذلك أن أبا سفيان كان بالشام في ثلاثين راكبًا، منهم عمرو بن العاص، فأقبلوا في قافلة عظيمة فيها أموال قريش، حتى إذا كانوا قريبًا من بدر فبلغ النبي ﷺ ذلك فندب أصحابه إليهم، وأخبرهم بكثرة المال وقلة العدو، وقال:

---

(١) قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣] أي: قليل عددكم لتعلموا أن النصر من عند الله لا بكثرة العدد، والعدد فهي أعظم غزوات الإسلام إذ منها كان ظهوره، وبعدها أشرف على الآفاق نوره، والصحابة الذين حضروها أفضل أمته ﷺ من استشهد فيها، ومن لم يتشهد، ولم تقاتل الملائكة في غزوة من غزواته ﷺ إلا فيها، وكذا لم يعهد قتال مؤمن من الجن معه ﷺ إلا فيها، والملائكة الذين شهدوها أفضل من الملائكة الذين لم يشهدوها، وكذا الجن الذين آمنوا، وشهدوها أفضل من الجن الذين آمنوا، ولم يشهدوها. قال ابن عباس: وتحضر الملائكة كل قتال وقع بين أهل الإسلام، وأهل الكفر تكثيرًا لجيش المسلمين لكن من غير قتال، وعدد الصحابة الذين شهدوا بدرًا على ما قال صاحب «عيون الأثر» من المهاجرين والأنصار: ثلاثمائة وثلاثة وستون. وقال غيره: الذين شهدوا الوقعة: ثلاثمائة وثلاثة عشر والباقون ثبت لهم أجرها، ولم يحضروها وسيأتي بيان أسمائهم تبركًا بهم وبيان طرف من فضائلهم وفوائد تتعلق بهم تبركًا بهم، وحكايات في مناقبهم، وعدد المهاجرين منهم، وعدد الأنصار، وعدد من استشهد منهم في الباب الثاني إن شاء الله. وخرجت الأنصار معه ﷺ، ولم تكن خرجت معه قبلها في غزوة من غزواته ﷺ، وكان معهم ثلاثة أفراس وسبعون بعيرًا، وكان المشركون ألفًا ومعهم ثلاثمائة فرس وسبعمائة بعير.

«هذه عير قريش وفيها أموال كثيرة، اخرجوا إليها لعل الله أن يُنفلكموها»(١)، فلما سمع أبو سفيان بمسيره ﷺ استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري أن يأتي قريشًا فيستفزهم ويخبرهم أن محمدًا قد عرض لعيرهم في أصحابه، فنهضوا في قريب من ألف مقنع، ولم يتخلف أحد من أشراف قريش إلا أبا لهب، وبعث مكانه العاص بن هشام بن مغيرة، وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى بلغ الروحاء، فأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عن عيرهم، فاستشار رسول الله ﷺ في طلب العير وحزب النفير، وقال: **«إن الله وعدكم إحدى الطائفتين إما العير وإما قريش»**(٢) فكانت العير أحب إليهم، فقام أبو بكر فقال فأحسن، ثم قام عمر فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ﴾ [المائدة:٢٤] إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق نبيًّا لو سِرْتَ بنا إلى برك الغماد -يعني مدينة الحبشة- لجادلنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له ﷺ ما بارك الله فيه ودعا له بالخير، ثم قال ﷺ: **«أيها الناس أشيروا علي، وإنما أراد الأنصار لأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا براء من دمك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في زمامنا، نمنعك بما نمنع به منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا، فلما قال ذلك** ﷺ قال له سعد بن معاذ ﷺ: **كأنك تريدنا يا رسول الله، قال: «أجل» قال: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله، فوالذي بعثك بالحق نبيًّا، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن نلقى عدونا، وإنا لصبر عند الحرب بصدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تَقَرُّ به عينك، فَسِرْ بنا على بركة الله، فَسُرَّ ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك، ثم قال: سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله كأني أنظر الآن إلى مصارع القوم»**(٣) ثم ارتحل ﷺ قريبًا من بدر، ونزلت قريش بالعدوة القصوى ونزل المسلمون على كثيب أعفر، تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب، وسبقهم المشركون إلى ماء بدر فأحرزوه وحفروا القليب لأنفسهم، وأصبح المسلمون بعضهم محدثًا وبعضهم جنبًا،

---

(١) رواه الطبري في تاريخه (٢/ ٢٣).

(٢) ذكره الأحوذي في تحفته (٨/ ٣٧٤).

(٣) رواه الطبراني في الطبقات الكبرى (٢/ ١٤) بنحوه.

وأصابهم الظماء وهم لا يصلون إلى الماء، ووسوس الشيطان لبعضهم وقال: تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبي الله وأنكم أولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم عطاش، وتُصَلُّون وأنتم محدثون مجنبون، وما ينتظر أعدائكم إلا أن يقطع العطش رقابكم، ويذهب قواكم، فيتحكموا فيكم كيف شاءوا، فأرسل الله عليهم مطرًا فسال الوادي، فشرب المسلمون واغتسلوا وتوضؤا، وسقوا الركاب وملؤوا الأسقية، وإطفاء الغبار، ولبَّد الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام، وزالت عنهم وسوسة الشيطان وطابت أنفسهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال:١١].

وبُني لرسول الله ﷺ عريش وكان فيه، ثم خرج عتيبة بن ربيع وشيبة وولد ابن عتبة عليهم اللعنة، ودعي إلى المبارزة فخرج إليهم فتية من الأنصار، وهم عوف ومعاذ -ابنا الحارث وأمهما عفراء- وعبد الله بن رواحة، فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار فقالوا: ما لنا بكم من حاجة، ثم نادى مناديهم: يا محمد أخرج أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا حمزة، قم يا علي»(١) فلما قاموا ودنوا منهم قالوا: من أنتم؟ فسمُّوا لهم، قالوا: نعم، أكفاء كرام، فبارز عبيدة عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز عليٌّ الوليد بن عتبة، فقتل عليٌّ الوليد، وقتل حمزة الذي بارزه، واختلف عبيدة ومَنْ بارزه بضربتين، فوقعت الضربة في ركبة عبيدة ومال حمزة وعَلي على الذي بارزه عبيدة فأعاناه على قتله.

اعلم أن في هذه القصة اختلافات كثيرة، ولا يسع هذا المختصر ذكر جميعهم، ثم تزاحم الناس ودنا بعضهم من بعض، ورسول الله ﷺ في العريش ومعه أبو بكر الصديق ﷺ، وليس فيه غيره، وهو -ﷺ- يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإيمان اليوم فلا تُعبد في الأرض أبدًا»(٢)، وأبو بكر ﷺ يقول: يا رسول الله، خَلِّ بعض مناشدتك ربك، فإن الله تعالى منجز لك ما وعدك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٣٥٦).
(٢) رواه مسلم (٣/ ١٣٨٤).

روي عن ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما: جاء إبليس يوم بدر في جُنْدٍ من الشياطين، معه راية، في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال:٤٨] فلما أقبل جبريل والملائكة كانت يده في يد رجل من المشركين، فانتزع يده ثم نكص على عقبيه، فقال: يا سراقة، أتزعم أنك لنا جار؟ ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، انتهى(١).

ولما التقى الجمعان، تناول رسول الله ﷺ كفًّا من الحصى فرمى به في وجوههم، وقال: «شاهت الوجوه»(٢) فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه ومنخريه منها شيء، فانهزموا، وقتل الله مَنْ قتل مِنْ صناديد قريش، وأسر مَنْ أسر مِنْ أشرافهم، وتمام القصة في «المواهب اللدنية».

قال الإمام ﷺ:

وَالفَتْحُ جَاءَكَ يَوْمَ فَتْحِكَ مَكَّةً ... وَالنَّصْرُ فِي الأَحْزَابِ قَدْ وَافَاكَا

قوله (والفتح ... إلخ): المراد من الفتح: إما فتح مكة فيكون قوله (يوم فتحك مكة) تفسيرًا له أو جنس الفتح، وهذا أظهر من ذاك، وفي بعض النسخ (جاء بك) فالباء سببية أو زائدة أو بمعنى إلى، ويوم منصوب بتقدير في مفعول فيه، وإضافة الفتح إلى الضمير إضافة المصدر إلى الفاعل، و(في الأحزاب): متعلق بـ(وافاك)، و(الأحزاب): جمع حزب، وهم قريش وغطفان واليهود ومن معهم، وفي البيت إشارة إلى فتحين:

الأول: فتح مكة شرَّفها الله تعالى، قال الإمام البغوي في «معالم التنزيل»: وكانت قصة فتح مكة -على ما ذكر محمد بن إسحاق وأصحاب الأخبار- أن رسول الله ﷺ لما صالح قريشًا عام الحديبية واصطلحوا على وضع الحرب بين الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكفُّ بعضهم عن بعض، وأنه من أحبَّ أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فدخل بنو بكر في عهد قريش ودخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ، وكان بينهما شرٌّ قديم، ثم إن بني بكر عَدَتْ

---

(١) انظر: عيون الأثر (١/ ٣٢٥)، والروض الأنف (٣/ ١١٣)، والسيرة لابن هشام (١/ ٦٦٣).
(٢) رواه مسلم (٣/ ١٤٠٢).

على خزاعة وهم على ماء لهم بأسفل مكة يقال له (الوتير)، فخرج نوفل بن معاوية من بني بكر حتى أتى بيت خزاعة، وليس كل بني بكر تابعًا له، فأصابوا منهم رجلاً وتجاوزوا واقتتلوا، ووقذت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم من قريش من قاتل مستخفيًا حتى جاوزوا خزاعة إلى الحرم، وكانوا ممن أعان بني بكر من قريش على خزاعة ليلتئذ بأنفسهم متنكرين صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو مع عبيدهم، فلما انتهوا إلى الحرم قالت بنو بكر: يا نوفل، إنا دخلنا الحرم إلهك إلهك، فقال كلمة عظيمة: إنه لا إله لي اليوم، فأصيبوا ثأركم فيه، فلما تظاهرت قريش على خزاعة وأصابوا منهم ونقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ بما استحلوا من خزاعة، وكانوا في عهده، خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله ﷺ، وكان ذلك مما هاج فتح مكة، فوقف عليه وهو في المسجد جالس بين ظهران الناس، فقال: اللهم إني ناشد محمدًا حلف أبينا وأبيه الأتلد، إن قريشًا أخلفوك الموعد ونقضوا ميثاقك، فقال رسول الله ﷺ: «قد نصرت يا عمرو بن سالم، ثم عرض لرسول الله ﷺ عنان من السماء، فقال: إن هذه السحابة تستهلُّ بنصر بني كعب، وهم رهط عمرو بن سالم، ثم خرج بديل بن ورق في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله ﷺ فأخبروه بما أصيب منهم، وتظاهر قريش وبني بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة، وقد كان رسول الله ﷺ قال للناس: كأنكم بأبي سفيان قد جاء لنشدد العقد ويزيد في المدة، ومضي بديل بن ورق فلقي أبا سفيان بعسفان، قد بعثته قريش إلى رسول الله ﷺ ليشدد العقد ويزيد في المدة، وقد رهبوا من الذي صنعوا، فلما لقي أبو سفيان بديلاً قال: من أين أقبلت يا بديل؟ فظن أنه قد أتى رسول الله ﷺ، قال: سرت إلى خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي، قال: أوما قد أتيت محمدًا؟ قال: لا، فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان: لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى، فذهب إلى مبرك الناقة فأخذ من بعرها ففته فرأى فيه النوى، فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمدًا.

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته -أي دفعته عنه- فقال: يا بنته، أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ، فقال: والله لقد أصابك يا بنته بعدي شيء، ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ، فكلم فلم يرد عليه شيئًا، ثم

ذهب إلى أبي بكر وكلمه أن يُكلم رسول الله ﷺ، فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه، فقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟! فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به، ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ وعندهما الحسن بن علي يدب بين يديها، فقال: يا علي، إنك أمس الناس رحمًا وأقربهم مني قرابة، وقد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبًا، اشفع لنا إلى رسول الله ﷺ، فقال: ويحك يا أبا سفيان، لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر لا نستطيع أن نكلمه فيه، فالتفت إلى فاطمة فقال: يا بنت محمد ﷺ، هل لك أن تأمري ابنك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما بلغ ابني أن يجير على رسول الله ﷺ أحد، فقال: يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت عليَّ، فانصحني، قال: والله ما أعلم شيئًا يُغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فَأجِرِ بين الناس ثم الْحَقْ بأرضك، قال: أو ترى ذلك مغنيًا عني شيئًا؟ قال: لا والله، ما أظن؛ ولكن لا أجد لك غير ذلك.

فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: يا أيها الناس، إني قد أجرت نفسي، ثم ركب بعيره فانطلق، فلما أن قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمدًا فكلمته، والله ما ردَّ عليَّ شيئًا، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد عنده خيرًا، فجئت ابن الخطاب فوجدته أعدى القوم، ثم أتيت علي بن أبي طالب فوجدته ألين القوم، وقد أشار عليَّ بشيء صنعت، فوالله ما أدري هل يغنيني منها شيئًا أم لا، قالوا: وماذا أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت، قالوا: أجاز ذلك محمد؟ قال: لا، قالوا: فوالله إن زاد عليٌّ على أن لعب بك فما يُغني عنا ما قلت، قال: لا، ما وجدت غير ذلك.

قال: وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز وأمر أهله أن يُجهزوه، فدخل أبو بكر ﷺ على ابنته عائشة – رضي الله تعالى عنها– وهي تصلح بعض جهاز رسول الله ﷺ، فقال: أي بنته، أمركم رسول الله ﷺ بأن تجهزوه؟ قالت: نعم فتجهز، قال: فأين يريد؟ قالت: لا أدري، ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناسَ أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجدِّ والتَّهَيُّؤ، قال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبتغتها في بلادها، فَتَجَهَّزَ الناس»[1].

وخرج عامدًا إلى مكة لعشر مَضَيْنَ من رمضان سنة ثمان، فصام رسول الله ﷺ وصام الناس، حتى إذا كان بالكديد –وهو ما بين عَسْفَان وأَمَجٍ– أفطر، ثم مضى حتى نزل

(١) رواه الطبري في تاريخه (٢/ ١٥٤).

بمر الظهران في عشرة آلاف من المسلمين وقد عميت الأخبار عن قريش فلا يأتيهم خبر عن رسول الله ﷺ ولا يدرون ما هو فاعل، فأمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار ولم يبلغ قريشًا مسيرهم، وهم مغتمُّون لما يخافون من غزوته إياهم، فبعثوا أبا سفيان بن حرب وقالوا: إن لقيت محمدًا فخذ لنا منه أمانًا، فخرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورق، حتى أتوا مر الظهران فإذا نيران، فقال أبو سفيان: كأنها نيران عرفة، فقال بديل بن ورق: نيران بني عمرو؟ فقال أبو سفيان: نيران بني عمرو أقل من ذلك، فرآهم ناس من حرس رسول الله ﷺ فأخذوه واستنقذه العباس.

روي أن عمر ﷺ لما رأى أبا سفيان رديف العباس دخل على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان دعني أضرب عنقه، فقال العباس: يا رسول الله، إني قد أجرته، فقال ﷺ: «اذهب به إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به، فذهب، فلما أصبح غدا به على رسول الله ﷺ، فلما رآه ﷺ قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ فقال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئًا، ثم قال: ويحك، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أمّا هذه فإن في النفس منها شيئًا، قال العباس: قلت: ويحك، أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن يضرب عنقك، فأسلم وشهد شهادة الحق، فقال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا، قال: نعم، مَنْ دخل دار أبا سفيان فهو آمن، ومَنْ أغلق عليه بابه فهو آمن، ومَنْ دخل المسجد فهو آمن، فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: يا عباس، احبسه بمضيق الوادي عند حطيم الخيل حتى يمر به جنود الله فيراها، قال: فخرجت به حتى حبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ، قال: ومرت به القبائل، كلما مرت قبيلة، قال: مَنْ هؤلاء يا عباس؟ قال: أقول: سليم، قال: يقول: ما لي وسليم؟ هكذا إلى آخر القبائل، فلما دخل رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء وهو على ناقته القصوى، فرأى أبو سفيان ما لا قِبَل له به، فقال للعباس: ويحك، إنه ليس بملك ولكنها بنبوة، قال: نعم»[(١)].

روي أنه ﷺ وضع رأسه توضعًا لله لما رأى ما أكرمه الله تعالى من الفتح، وباقي القصة مذكور في كتب السير.

---

(١) رواه الطبراني في معجمه الكبير (٨/ ١١) بنحوه.

والثاني: فتح الأحزاب في غزوة الخندق.

حاصله أن قريشًا وغطفان وغيرهم خرجوا لحرب رسول الله ﷺ بتحريك نفر من اليهود، منهم: سلام بن أبي حقيق، وحيي بن أحطب، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وهودة بن قيس، وغيرهم.

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وبما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة بإشارة سليمان الفارسي رضي الله عنه، وكان أول مشهد شهد مع رسول الله ﷺ، فاحتج المهاجرون والأنصار في سليمان الفارسي، وكان رجلاً قويًّا، «فقال المهاجرون: سلمان منا، وقال الأنصار: سلمان منا، فقال النبي ﷺ: «سلمان من أهل البيت»، قال عمرو بن عوف: كنت أنا وسلمان وحذيفة ونعمان بن مقرن المزني وستة من الأنصار في أربعين ذراعًا، فحفرنا حتى إذا كنا نحب أن يزيدنا، فحينئذ أخرج الله من بطن الخندق صخرة مروة كسرت حديدنا وشقت علينا، فقلنا: يا سلمان، ارق إلى رسول الله ﷺ وأخبره خبر هذه الصخرة، فإما أن يعدلنا عنها فإن المعدل قريب، وإما أن يأمرنا فيه بأمره، فإنا لا نحب أن نجاوز خطه. فأتى سلمان رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، خرجت صخرة بيضاء مروة من بطن الخندق فكسرت حديدنا وشقت علينا حتى ما يحيك فيها قليل ولا كثير، فَمُرْ فيها بأمرك فإنا لا نحب أن نتجاوز خطك، فهبط رسول الله ﷺ مع سلمان الخندق، والتسعة على شقة الخندق، فأخذ رسول الله ﷺ المعول من سلمان فضربها ضربة فصدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها -يعني المدينة- فكبر رسول الله ﷺ وكبر المسلمون، ثم ضربها رسول الله ﷺ الثانية وبرق الثانية، فكبر رسول الله ﷺ وكبر المسلمون، ثم ضربها ثالثة فكسَّرها وبرق منها برق، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرًا وكبر المسلمون، فأخذ بيد سلمان ورقي، فقال سلمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد رأيت شيئًا ما رأيت مثله قط، فالتفت رسول الله ﷺ إلى القوم فقال: «أرأيتم ما يقول سلمان»؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «ضربت ضربتي الأولى فبرق الذي رأيتم أضاءت لي قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب كلاب، وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتي الثانية فبرق البرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور الحمير من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني

جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتي الثالثة فبرق الذي رأيتم أضاءت لي قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبرائيل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها، فأبشروا»(١) فاستبشر المسلمون.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجمع السيول في عشرة آلاف من أجايشهم ومَنْ تبعهم من بني كنانة وتهامة، ونزل عيينة بن حصي في غطفان ومَنْ تبعهم من أهل نجد إلى جانب أحد، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع، وكانوا ثلاثة آلاف رجل، فضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين القوم، وكان لواء المهاجرين بيد زيد بن حارثة ولواء الأنصار بيد سعد بن عبادة، وكان ﷺ يبعث الحرسة إلى المدينة خوفًا على الذراري من بني قريظة.

روى البخاري في «صحيحه» من حديث عبد الله بن أوفى، قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب، فقال: **«اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وذللهم وزلزلهم»**(٢).

وفي «ينبوع الحياة» لابن ظفر قيل: إنه ﷺ دعا فقال: **«يا صريخ المكروبين يا مجيب المضطرين، اكشف همّي وكربي فإنك ترى ما نزل بي وبأصحابي، فأتاه جبرائيل عليه السلام فبشره بأن الله سبحانه وتعالى يُرسل عليهم ريحًا وجنودًا، فأعلم أصحابه ورفع يديه قائلاً: شكرًا شكرًا»**(٣)، وهبَّت ريح الصبا ليلاً فقلعت الأوتاد وألقت عليهم الأبنية، وسفنت عليهم التراب ورمتهم بالحصى، وسمعوا في أرجاء عسكرهم التكبير وقعقعة السلاح فارتحلوا في ليلتهم وتركوا ما استثقلوه من متاعهم.

قال: فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب:٩].

لَمَّا بيَّن -رحمه الله تعالى- بعض معجزاته ﷺ أراد أن يُشير إلى كون جمال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من نوره وبهائه وضيائه، فقال الإمام رضي الله عنه:

هُـــودٌ وَيُـــونُسُ مِـــنْ بَهَـــاكَ تَجَمَّـــلَا ... وَجَمَـــالُ يُوسُـــفَ مِـــنْ ضِـــيَاءِ سَـــنَاكَا

---

(١) رواه الطبري تاريخه (٢/ ٩٢)

(٢) رواه البخاري (٤/ ١٥٠٩)

(٣) ذكره الشامي في سبل الهدى والرشاد (٨/ ٥٢٨)

هو اسم نبي معلوم: هود بن عابر بن شالخ بن فالغ بن أرفخشد بن سام بن نوح ، وهو مأخوذ من: هاد يهود هودًا، إذا تاب ورجع إلى الحق.

فعلي هذا عربي، وقيل: عجمي اسمه عابر، وإنما سمي به لكونه ذا شفقة ورحم وسكون ووقار، وصرفه لعدم وجود شرط العجمة، وهو إما تحرك الوسط أو الزيادة على ثلاثة أحرف، (يونس): هو يونس بن متي ، وهو من المرسلين، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:١٣٩]، عربي مأخوذ من الأناس، ويجوز في النون الحركات الثلاثة، وعدم صرفه للعلمية ووزن الفعل، وقيل: عجمي، وعدم صرفه للعلمية والعجمة، (البهاء) بفتح الباء: الحسن، يقال: بها يبهو الغلام، وبهي وبها بهاء، من الباب الخامس والرابع والثالث والثاني: إذا حسن، وقد يستعمل بمعنى الاسم، يُقال: قد ملأ عيني بهاؤه، أي: حسنه، قوله (تجملاً) أي: تَزَيُّنًا، يقال (تجمل الرجل) إذا تزين.

قوله (جمال يوسف) أي: حسنه، بهاءه، و(الضياء) بكسر الضاد المعجمة: النور، يقال: أشرق ضوء الشمس وضواءها وضياءها أي: نورها، كما في «القاموس»، وقيل: الضوء ما يكون بالذات، والنور بالعرض، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس:٥]، قوله (من ضياء سناك) وفي بعض النسخ (من نور سناك) أي: من معروفك وإحسانك، والإضافة بيانية، يُقال: نال منه السَّنا، أي: المعروف والإحسان، وسنا على زنة عصا، لكن حذف منه التنوين للإضافة والضرورة، وحاصل المعنى أن هودًا ويونس ويوسف عليهم والسلام أخذوا حظهم من الحسن والجمال والبهاء والنور من ضوء الأضواء وسراج الرسل والأنبياء، ونور أهل الأرض والسماء، أحمد الذي من علومه عُلِّمَ آدم الأسماء.

لما بيَّن – رحمه الله تعالى – كون جمال يونس وهود ويوسف من ضوء مصباح الظلام وسراج الأنام، محمد المصطفى –عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام– أراد أن يُبَيِّنَ كونه ﷺ فائقًا على جميع الأنبياء –عليهم السلام– فقال:

قَدْ فُقْتَ يَا طَهَ جَمِيعَ الأَنْبِيَا طُـرًّا، فَسُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَاكَا

قوله (فقت) أي: علوت كل الأنبياء بالشرف، يُقال: فاق فلان أصحابه، يفوق فوقًا وفواقًا: إذا علاهم بالشرف، كذا في «القاموس».

اعلم أن في طه أقوالاً كثيرة، قيل: معناه (يا رجل) بلغة الحبشة، وقيل معناه (طاء بقدميك الأرض) وغير ذلك، والأول هو المناسب لهذا المقام، تدبر.

(الطرّ) بضم الطاء المهملة: الجميع، يقال: جاؤوا طرًّا أي: جميعًا، فيكون التأكيد بغير لفظه.

(سبحان): اسم مصدر بمعنى التنزيه والتقديس، ولا يُذكر إلا مضافًا، وهو منصوب بفعل مقدر تقديره: أنزه الله تعالى عما لا يليق بجنابه، كشريك وولد وزوجة، وغير ذلك مما يدل على النقص، وقد يُستعمل على أصله يقال: سبح الرجل سبحان من الباب الثالث إذا قال: سبحان الله، كما في القاموس.

وبمعنى التعجب: سبحان من كذا، أي: عجبًا له.

وبمعنى النفس، يقال: أنت أعلم بما في سبحانك أي: نفسك، والمراد هنا الأول لا غير، والله أعلم، تأمل.

(الإسراء): المشي في الليل، وهو يُستعمل متعديًا كما في هنا، وغير متعدٍّ كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]، يقال: أسراه وأسرى به: إذا سيَّره بالليل، والفاء فصيحة.

حاصل المعنى: قد علوت يا طه جميع الأنبياء والمرسلين بالشرف إذا سرى بك الله إلى مقام لا تدركه الأوهام ولا تصل إليه الأفهام، وكلمك على بساط القرب، ولله در القائل:

فَـإِنْ يَـكُ مُوسى كَلَّـم اللهَ جَهْـرَةً ... عَـلَى جَبَـلِ الطُّـورِ الرَّفِيـعِ المُكَـرَّمِ
فَقَـدْ كَلَّـم اللهُ النبـيَّ محمَّـداً ... عَـلَى المَوْضِـعِ العـالي المَنِيـفِ المُعَظَّـمِ
وَأَوْحَى إِلَيْهِ الـوَحْيَ مِـنْ غَـيْرِ حَاجِـبٍ ... وَنَـاداهُ يَـا خَـيْرَ البَرَايَـا تَكَلَّـمِ

سَأُسْكِن مَنْ وَالَاكَ فِرْدَوْسَ جَنَّتِي   وَأُسْكِنُ مَنْ عَادَاكَ نَارَ جَهَنَّمِ

وقال البوصيري ﷺ:

وَكُلُّ آيٍ أَتَى الرُّسُلُ الكِرَامُ بِهَا   فَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ مِنْ نُورِهِ بِهِمِ

فَإِنَّهُ شَمْسُ فضلٍ هُمْ كَوَاكِبُهَا   يُظْهِرْنَ أنوارَهَا للنَّاسِ في الظُّلَمِ

لما بيَّن -رحمه الله تعالى- كون طه أخذ اللهُ الميثاقَ من النبيين أن يؤمنوا به إن جاءهم أعلاهم قدرًا وشرفًا فترقى من ذلك، وأتى بالقسم على ذلك والله شاهد على ما هنا لك، فقال الإمام ﷺ مبيِّنًا ذلك:

وَاللهِ يَا يَس مِثْلُكَ لَمْ يَكُنْ   فِي العَالَمِينَ وَحَقِّ مَنْ نَبَّاكَا

قوله (والله ... إلخ): الواو للقسم، ولفظ الجلال مقسمٌ به، وفعل القسم محذوف تقديره (أقسم) و(مثلك ... إلخ): جواب القسم، و(يا): حرف النداء، و(ياسين): منادى مفرد مبني على الضم، (مثل): مبتدأ مضاف إلى الكاف، والكاف مضاف إليه، و(لم): حرف نفي وجزم وقلب، و(يكن): مجزوم وعلامة جزمه سقوط الحركة، واسم يكن محذوف تقديره (أحد)، والجملة جواب القسم،قوله (وحق) بالجر: معطوف على لفظ الجلال، قوله (نَبَّاكَ) أي: أخبرك، فإن قيل: كيف يصح قوله: مثلك لم يكن ... إلخ، مع أن إبراهيم وموسى وعيسى ونوحًا وغيرهم من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين مثله ﷺ في النبوة والرسالة، قلنا: هذا على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، أي: يدانيه، وبهذا القيد يندفع الاحتياج إلى تكليف تقدير المثل، إذ فيه تقدير فرض المحال، وهو وإن كان جائزًا نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١]، لكن عدمه أولى في الآية الأولى بخلاف الثانية؛ إذ فيه الاحتجاج على الكفرة في إدعائهم الولد لله تعالى، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

وعبادتهم عيسى ﷺ على زعمهم الفاسد أنه ولد الله -تعالى الله- أو زيادة الكاف الجارة وإن كان زيادة حرف الجر شائعًا، نحو قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح:٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥] إن أريد بالأيادي الأنفس، لكن عدم الزيادة هنا أولى، تَدَبَّرْ، إذ يندفع التكليف بقولنا: (يُدَانُونه)،

تأمل، فإن قيل: قد ورد بعض الأسماء الحسنى في القرآن في أسماء النبي العدنان - عليه أفضل صلوات الرحمن وأزكى سلام الديان- نحو الرءوف الرحيم وغيرهما مع قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وقد اتفق العلماء على عدم مماثلة الأشياء له تعالى -لا في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال- وعلى هذا يكون المنافاة بينهما وبما قلنا يدانوه يندفع المنافاة، تدبر تطهر.

وحاصل المعنى: أقسم والله وحق من أخبرك وعلّمك ما لم تكن تعلم -وهو الله- يا أيها الإنسان الكامل الجامع لجميع خصال الأنبياء والمرسلين، لم يكن مثلك أحد من العالمين يدانيك، ولا تكون وفقت عليهم بأن بعثت رحمةً للعالمين وشفيعًا للمذنبين كما قلت: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**»(١).

لما بيّن -رحمه الله تعالى- كونه ﷺ منزهًا عن شريك في محاسنه من الأنبياء أراد أن يُبيِّن عجز الشعراء عن وصف سيد الأتقياء، **فقال الإمام** ﷺ:

عَنْ وَصْفِكَ الشُّعَرَاءُ يَا مُدَّثِّرٌ عَجَزُوا وَكَلُّوا مِنْ صِفَاتِ عُلَاكَا

قوله (**عن وصفك ... إلخ**): الجار والمجرور متعلق بقوله (**عجزوا**)، والمراد من الشعراء شعراء المسلمين مطلقًا، أو شعراؤه ﷺ كالحسان وغيره ﷺ، (**مدثر**): أصله متدثر، قُلِبَت التاء دالاً وأدغم الدال في الدال صار مدثر، أي: المتلفف المتغطي بالثياب أو بأعباء الرسالة، (**العجز**): ضد القدرة، و(**الكل**) بفتح الكاف هنا بمعنى: العجز، و(**من صفاتك**): متعلق بـ(كَلُّوا).

وفي البيت إشارة إلى ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «**أول ما بُدِءَ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم -وفي بعض الروايات الرؤيا الصالحة- فكان لا يرى رؤية إلا جاء مثل فلق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه، وهو التعبد الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: ما**

(١) رواه أبو داوود (٤/ ٢٣٦).

أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ [العلق:١-٥]، فرجع بها -أي: بالقراءة أو بالآية- رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة، فقال: زملوني زملوني»(١)، أي: غطوني ودثروني.

حاصل المعنى: عجز الشعراء عن عدِّ أوصافك السنية وأخلاقك المرضية، إذ ليس لوصفك غاية وانتهاء، وللقول غاية وانتهاء، هل تنزح البحارَ الرّكاءُ؟

وقال الإمام ﷺ:

إِنْجِيلُ عِيسَى قَدْ أَتَى بِكَ مُخْبِرًا وَلَنَا الكِتَابُ أَتَى بِمَدْحِ حَلَاكَا

هذا كالعلة لما قبله، والمراد من (إنجيل عيسى) ﷺ: الإنجيل المُنَزَّل على عيسى ﷺ، قوله (أتى) أي: نزل مخبرًا بك، قال الله تعالى حكاية عن عيسى ﷺ: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

والمراد من (الكتاب) هنا: القرآن المنزل على محمد ﷺ.

قوله (يمدح حلاكا) أي: يُبَيِّنُ رفعة قدرك ومكانة منزلتك وشرف جاهك عند ربك، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥،٤٦].

اعلم أن علماء أهل الكتاب يعرفون محمدًا كما يعرفون أبنائهم، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦].

حاصل المعنى: نزل إنجيل عيسى ﷺ مخبرًا بصفاتك الحسنى، وأنزل القرآن مادحًا علاك، سئلت السيدة عائشة - رضي الله تعالى عنها- عن خلق رسول الله ﷺ فقالت:

(١) رواه البخاري (٤/ ١٨٩٤)

«كان ﷺ خلقه القرآن»(١).

وقال الإمام ﷺ:

مَـــاذَا يَقُـــولُ المَـــادِحُونَ وَمَـــا عَـــسَى أَنْ تَجْمَـــعَ الكُتَّـــابُ مِـــنْ مَعْنَاكَـــا

قوله (ماذا ... إلخ) أي: ليس يقول المادحون لك غاية وصفك أي: ما يقول المادحون إلا شيئًا قليلاً، لا يُقال: كان الواجب تأنيث الفعل؛ لأن الفاعل جمع وكل جمع باعتبار الجماعة مؤنث، لأن الألف واللام إذا أُدخلتا على الجمع أبطلتا معنى الجمعية وأفادتا معنى الجنسية لتضادهما وتأنيث تجمع باعتبار معنى الجمعية الأصلية دون المعنى الجنسية العارضية، تأمَّل.

وفي بعض النسخ (وما على) بدل (وما عسى)، قوله (من معناك) أي: من معناك المحمدية، المستفاد من لفظ محمد إذ اللفظ قالب المعنى بالنظر إلى المخاطب، وبالعكس بالنظر إلى المتكلم، فافهم.

وحاصل المعنى: ليس يقول المادحون لك غايةَ وصفك، بل ما يقولون إلا شيئًا قليلاً من معناك، ولو جمع الكتاب، إذ ليس لهم غاية المعرفة بالحقيقة الأحمدية، فكيف بسعيهم نهاية وصف المحمدية.

وقال الإمام ﷺ:

وَاللهِ لَـــوْ أَنَّ البِحَـــارَ مِـــدَادُهُم وَالعُـــشْبَ أَقْـــلَامٌ جُعِلْـــنَ لِـــذَاكَا

قوله (والله ... إلخ): الواو للقسم، ولفظ الجلال مُقْسَمٌ به، وفعل القسم محذوف تقديره (أقسم)، فإن قيل: كان الواجب عليه الإتيان بالفعل الماضي؛ لأنه إذا تقدَّم القسم على الشرط لزمه الماضي لفظًا أو معنى، وهنا ليس كذلك، قلنا: هذا إذا كان الشرط فعلاً، وأما إذا كان غير ذلك فلا يلزم ذلك كما هو محرر هنالك، (البِحَارَ): جمع بحر، وهو اسم للمكان الذي يجمع فيه الماء الكثير، سواء كان الماء حلوًا أو مالحًا عند البعض، ثم غلب استعماله حتى جعل اسمًا للماء الكثير، سواء كان حلوًا أو مالحًا، فيكون قوله تعالى: ﴿ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾، ﴿وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢] على أصله.

(١) رواه أحمد في «المسند» (٦/ ٩١).

وعند البعض اسم للماء المالح فقط، فتكون الآية على التغليب، وهو يجمع على أبحر وبحور وبحار، كما في «القاموس»، (المداد) بكسر الميم: المركب والحبر، (وَالعُشُبَ) بضم العين المهملة والشين المعجمة: جمع عشب، كصفر جمع صفر، وهو اسم للحشيش الأخضر، يُقال: بالأرض عشب كثير أي: الكلأ الرطب، كذا في «القاموس» وهو منصوب معطوف على البحار، واللام فيهما للاستغراق والجنس لا العهد، تأمل.

والـ(أَقْلَام): جمع قلم، وهو اسم للقصب الذي يُكتب به، وإنما قال أقلامًا ولم يقل قلمًا اعتبارًا لملاحظة معنى الجمعية الأصلية في العشب لا الجنسية العارضة، تدَبَّر.

قوله (جعلن) أي: صرن تلك الأعشاب أقلامًا، قوله (لذاك) أي: للجمع.

وحاصل المعنى: أقسم بالله لو كان البحار حبر الكتَّاب والعشب أقلامهم، لم يستطيعوا إدراك حقيقة المحمدية؛ إذ غاية علمهم إنه ﷺ بَشَرٌ، وخير بشر.

وقال الإمام ﷺ:

لَمْ تَقْــــدِرِ الـــثَّقَلَانِ تَجْمَــــعُ نَـــزْرَهُ أَبَـــدًا وَمَـــا اسْــطَاعُوا لَـــهُ إِدْارَكَـــا

والمراد من (الثقلان) الإنس والجن، وإنما خصَّهما بالذكر لكونهما مكلَّفين، قال الله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن:٣١]، وتأنيث (تجمع) باعتبار طائفة.

قوله (نزرة) بفتح النون وسكون الزاي المعجمة وفتح الراء المهملة على زِنَةِ فرحة: بمعنى قليلة، يُقال: امرأة نزور، أي: قليلة الولد أو اللبن، كما في «القاموس»، ويستعمل في مطلق القلَّة.

(أبد) بفتح الهمزة والباء الموحَّدة: عبارة عن زمان طويل، وجمعه (آباد) بمد الهمزة، كآزل وآزال، و(أُبود) بضم الهمزة، كما في «القاموس»؛ لكنَّ المراد هنا الزمان الذي لا غاية له، كما هو المناسب لهذا المقام، كما لا يخفى على أهل المقام، ويستعمل (أبد) بمعنى: دائمًا، يقال: لا آتيه أبد الأبدية، وأبد الآبدين، كعابدين، وأبد الآبدين كأرضين، هذه كلها تأكيد لدوام الأمر كما يقال: دهر الدَّاهرين.

(الاستطاعة): القدرة، وهو ضد العجز، وإنما أتى بصيغة الجمع دون التثنية

لاعتباره أنواع الثقلان، أو لورود ما فوق الواحد جمع، أو لضرورة و ضمير له راجع إلى معنى المَعْنِيّ به عن حقيقة المحمدية (الإدراك) بكسر الهمزة: اللحوق والمعرفة؛ والكل هنا صحيح، تَأَمَّلْ وَلَا تَعْتَرِضْ.

وجملة (لم يقدر): جواب القسم لفظًا فقط، وجواب للشرط والقسم مَعْنى، تَدَبَّرْ.

وحاصل المعنى: لم يقدر الإنس والجن أن يجمعوا قليلاً من معنى أحمد، ولو كان بعضهم لبعض عونًا ومدًّا وما استطاعوا له إدراكًا ومعرفةً، فسبحان الملك الودود المعبود، الذي جعل محمدًا سببًا لكل موجود.

لما بيَّن -رحمه الله تعالى- كونه ﷺ منزهًا عن شريك في محاسنه، وعَجْزَ الثقلين عن درك معرفة كُنْهِ ذات سيد الكونين، أراد أن يُبَيِّن كونه -رحمه الله- عاشقًا لمعشوق العشاق تحدُّثًا بنعمة الملك الخلاق، فقال الإمام ﷺ:

بِـــكَ لِي قُلَيْـــبٌ مُغْـــرَمٌ يَـــا سَـــيِّدِي وَحُـــشَاشَةٌ مَحْـــشُوَّةٌ بِهَوَاكَـــا

الباء في (بك): إما بمعناه السببية بارتكاب تكليف، فيكون على حدِّ أني أتوصل بك إليك، ومتعلق بمغرم محذوف تقديره (مغرم بك لك)، أوبمعنى اللام، فحينئذ لا حاجة إلى ارتكاب تدبر الجار والمجرور، الأول متعلق بقوله (مغرم) على كلا التقديرين، والثاني بمحذوف والثالث بمحشوَّة.

(قليب): مصغَّر قلب، وهو نوعان: جسم لطيف صنوبري، وهبة الهيئة يدعها الله تعالى في القلب الصنوبري.

الأول: عام في جميع الحيوانات من الخواص والعوام.

والثاني: خاص بالخواص من الأنام، كما قاله حجة الإسلام.

(المغرم) على زنة مكرم: المبتلى بداء العشق، يقال: هو مغرم أي: أسير الحب، قوله (يا سيدي ... إلخ): يا مالكي، (حشاشة) أي: أمعاء، (محشوة): مملوءة، (بهواك): حبك وعشقك.

حاصل المعنى: بك لا بأحد غيرك على المعنى الأول، ولك لا لأحد غيرك على المعنى الثاني، قلب عاشق يا سيدي وأمعاء مملوءة بحبك؛ إذ سواك لا يُرَام وعاشقك لا يُلام ولا يُضام، اللهم بلِّغْنَا بجاهه أقصى المقام.

لما بيَّن كونه عاشقًا للمصطفى ﷺ أراد أن يُبَيِّن سكوته وتكلمه في المجتبي، فقال الإمام ﷺ:

وَإِذَا سَكَتُّ فَفِيكَ صَمْتِي كُلُّهُ وَإِذَا نَطَقْتُ فَمَادِحًا عَلْيَاكَا

(**السكوت**) و(**الصمت**): بمعنى واحد، وهو ضد النطق، قوله (**إذا نطقت ... إلخ**) أي: تكلمت، (**فأمدح**): فأُثني، (**علياك**) أي: علو قدرك ورفعة مكانتك وعزة شأنك عند ربك.

وحاصل المعنى عند أهل الظاهر: إذا نطقتُ أمدح النبي الكريم ﷺ الرءوف الرحيم وإلا فأسكتُ، وفي هذا البيت إشارة إلى قوله ﷺ : «**مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فيقل خيرًا أو ليصمت**»(١).

وعندنا: إذا سَكَتُّ حين صرتُ دهشانًا بين الجلال والجمال، وإذا رجعتُ من ذلك الحال أمدح النبي ذا الجود والإحسان والنوال، يعرف ما قلناه مَنْ مُنَّ عليه بالوصال مِنْ كمل فحول الرجال، وأما غيرهم من النساء والأطفال فلا يعرف الحال من القال، اللهم احشرنا تحت لواء سيِّد البشر محمد الذي شقَّ بإشارته القمر.

قال الإمام ﷺ:

وَإِذَا سَمِعْتُ فَعَنْكَ قَوْلاً طَيِّبًا وَإِذَا نَظَرْتُ فَمَا أَرَى إِلَّاكَا

قوله (**فعنك**) أي: فأسمع عنك بلا واسطة؛ لأن أولياء الله يسمعون من حبيب الله من غير واسطة أو بواسطة، مثل قوله تعالى: ﴿**أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ**﴾ [الكهف:٣٧]، إذ مَنْ سمع من التابعي فكأنما سمع من الصحابي ،ومَنْ سمع من الصحابي فكأنما سمع من النبي ﷺ. ودخول أداة الاستثناء على ضمير المخاطب

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٢٧٢).

للضرورات، فإن قيل: قوله (إذا سمعت ... إلخ) يُشعر باجتماع أبي حنيفة بالنبي ﷺ مع أن الأمر خلاف ذلك، قلنا: نعم، لأن أبا حنيفة وغيره من الأئمة الثلاثة -كمالك والشافعي وأحمد- بل أكثر الأولياء يسمعون من النبي ﷺ، وينظرون إلى جماله، فإن قيل: يلزم من ذلك أن يكونوا أصحابًا مع أنهم ليسوا كذلك، قلنا: لا يلزم من ذا ذلك، إذ الصحابي مَنْ لقي النبي ﷺ قبل انتقاله ﷺ من دار الفناء إلى دار البقاء مؤمنًا به ومات على الإيمان، فخرج بقولنا قبل انتقاله ... إلخ، مَنْ شاهده بعد انتقاله ومَنْ يشاهده، وبقولنا مؤمنًا به رسول هرقل فإنه لقي النبي ﷺ كافرًا به، ثم أسلم في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، فهو تابعي لا صحابي، وبقولنا: ومات على الإيمان، ومَنْ مات على الكفر كابن سلول وغيره من المنافق، نعوذ بالله من الكفر ومن النفاق والشقاق وسوء الأخلاق، وسوء المنقلب في المال والأهل والولد، ومما لا يرضى به الصمد.

قال الإمام ﷺ:

يَـا مَـالِكِي كُـنْ شَـافِعِي فِي فَـاقَتِي إِنِّي فَقِـيرٌ فِي الـوَرَى لِغِنَاكَـا

قوله (في فاقتي) أي: في وقت فاقتي، وهو يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، (الفاقة): الفقر والاحتياج، يُقال: أَخَذَتْهُ الفاقة أي: الفقر والحاجة، وقد بيَّنَّا أنواع الشفاعة عند قوله: (أنت الذي فينا سألت شفاعة) فراجعه.

قوله (فقير) أي: محتاج مضطر، (الورى): الخلق، تقول: ما أدري أي الورى هو، أي: أيُّ الخلق، قوله (لغناك) أي: لجودك وكرمك وفضلك وإحسانك وشفاعتك.

وحاصل المعنى: يا مالك رقبتي أطلب من حضرتك أن تكون شفيعي في وقت فقري؛ لأني محتاج فيما بين المخلوق أو معهم لشفاعتك، لا يقال: إن هذا يُشعر بعصيان أبي حنيفة - رحمه الله تعالى- لأن المراد بالشفاعة في حقهم: رفع الدرجات، تَأَمَّلْ، ولأنه وليٌّ، والولي مصون ومحفوظ.

قال الإمام ﷺ:

يَـا أَكْـرَمَ الثَّقَلَـيْنِ يَـا كَنْـزَ الـوَرَى جُـدْ لِي بِجُـودِكَ وَارْضِـنِي بِرِضَـاكَا

وإنما قال (يا أكرم الثقلين) ولم يقل (يا أكرم الخلق) للضرورة ولشرف الإنس على غيره، والتثنية باعتبار كونهما مكلفين.

(الكنز) بفتح الكاف وسكون النون: المال المدفون، يُقال: وجد كنزًا أي: مالاً مدفونًا، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ [الكهف:٨٢].

والدفن، يُقال: كنز المال كنزًا -من الباب الثاني- إذا دفنه في الأرض، واسم للذهب والفضة، والمحفظة كالصندوق وغيره، شبَّه النبي ﷺ بالكنز تشبيه الأقوى بالأضعف، ووجه الشبه بينهما أن الكنز تُستخرج منه الجواهر والنبي تؤخذ منه الأحكام التي أفخر وأقوم وأنفس من الجواهر واليواقيت، من القول والفعل والتقرير.

(الجود) بضم الجيم المعجمة: السخاء؛ ولهذا عدَّاه باللام، تَدَبَّر، أقول: المراد من الجود هنا الإحسان، وكان حقه التعدية بإلى، تأمَّل.

قوله (جُدْ): طلب ورجاء لا أمر، تَدَبَّرْ، قوله (أرضني) أي: أجعلني راضيًا بسبب رضائك مني.

حاصل المعنى: يا أكرم الأولين والآخرين ويا رحمة للعالمين، أحسن إليَّ من إحسانك وجودك وكرمك، واجعلني راضيًا بلطفك معي ورضائك مني، اللهم اجعل حبيبك راضيًا عنا ولا تجعله ساخطًا وغاضبًا علينا، يا أرحم الراحمين.

قال الإمام ﷺ:

أَنَا طَامِعٌ بِالجُودِ مِنْكَ وَلَمْ يَكُنْ لِأَبِي حَنِيفَةَ فِي الأَنَامِ سِوَاكَا

(الطمع): الحرص، يُقال: رجل طامع، أي: حريص، لكن المراد منه هنا الرجاء، والمراد من الجود هنا الشفاعة، بقرينة السباق والسياق، الألف واللام عوض عن المضاف إليه، أي: شفاعتك أو للعهد، أي: الشفاعة الموعودة التي وعدت المؤمنين.

وعلى كلا التقديرين الباء زائدة أو سببية، فحينئذ يكون مفعول اسم الفاعل الصريح محذوفًا، و(منك): متعلق بالمقدر لا بالظاهر، فافهم.

واسم (لم يكن) محذوف، و(سواك): صفة ذلك المحذوف، أي: لم يكن شفيع غيرك، (الأنام): الخلق، فإن قيل: إن لم ينقل المضارع إلى الماضي ثم ينفيه فيلزم عدم كون الشفيع له في الماضي دون المستقبل، قلنا: لا يلزم ذلك إن كان منسلخًا عن الزمان، بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح:٤]، حاصله: أنا راجِ الشفاعة منك لا من أحد غيرك يا بدر التمام؛ إذ ليس شفيع غيرك من الأنام.

قال الإمام ﷺ:

فَعَسَاكَ تَشْفَعُ فِيهِ عِنْدَ حِسَابِهِ فَلَقَدْ غَدَا مُتَمَسِّكًا بِعُرَاكَا

اعلم أن (عسى) فعل من أفعال المقاربة، وهو لدنوِّ الخبر، وفيه الطمع، وأنه يلزم دخول أن على خبره إن كان مضارعًا نحو: عسى زيد أن يخرج، وإنما حذف (أن) هنا تَشْبِيهًا له بـ(كاد)، والضمائر كلها راجعة إلى أبي حنيفة إلا ضمير الخطاب (الحساب): لا يقتضي العتاب والعذاب والعقاب كما هو محرر عند أولي الألباب.

قوله (غدا) أي: صار (التمسك): الاعتصام، يقال: أمسك به وتماسك وتمسَّك واستمسك، إذا اعتصم به، (العرى) بضم العين والعروة بمعنى واحد، وهو: المقبض من دلوٍ أو كوزٍ أو غيره، تقول: استمسك بعروة الدلو أو الكوز، أي: مقبضها، كذا في «القاموس»، والمراد به حبله المتين الذي يُوَصِّل الطالب إلى المطلوب من النظر إلى جمال المحبوب.

قال الإمام ﷺ:

فَلَأَنْتَ أَكْرَمُ شَافِعٍ وَمُشَفَّعٍ وَمَنِ الْتَجَا بِحِمَاكَ نَالَ وَفَاكَا

قوله (فلأنت ... إلخ) أي: والله أنت شافع مشفع، على زنة اسم المفعول، أي: مقبول الشهادة، (الالتجاء): ليس بمعناه الأصلي بل بمعنى التوسل والتمسك؛ لأن معناه الادعاء، يقال: التجأ إلى غير قومه، أي: ادَّعى، وهذا لا يناسب هذا المقام، (حمي): على زنة إلى بالقصر، وكساء بالمد الحفظ، يقال: حمى الشيء يحميه حميًا وحماية ومحمية: إذا منعه ودفع عنه.

وفي البيت إشارة إلى ما روي عنه ﷺ أنه قال: «أنا أول شافع وأنا أول مُشَفَّع يوم

القيامة ولا فخر»(١).

(النال) والنيل والنالة: بمعنى الإصابة إلى المطلوب، تقول: نلتُ مطلوبي أنيله وأناله نيلاً ونالاً ونالة - من الباب الأول والرابع - أي: أصبته، (الوفاء): عدم نقض العهد والمحافظة، اللهم أشفع فينا حبيبك يا الله.

قال الإمام ﷺ:

فَاجْعَلْ قِرَاكَ شَفَاعَةً لِي فِي غَدٍ ... فَعَسَى أَكُنْ فِي الحَشْرِ تَحْتَ لِوَاكَا

(القرا) بكسر القاف: الإضافة، يقال: قرى الضيف قرئ وقراء -من الباب الثاني- إذا أضافه، كذا في «القاموس».

أنت صاحب المنزل وأنا ضيفك، وقد أمرت بإكرام الضيف فحاشاك أن يخيب ضيفك.

وفي البيت إشارة إلى كون النبي ﷺ فرط الأمة، قال ﷺ: «حياتي خير لكم ومماتي خير لكم»(٢)، والمراد من الـ(غد): يوم القيامة، وإنما جزم (أكن) لوقوعه جواب الأمر، وفي شطر الثاني تلميح إلى ما وري عنه ﷺ: «وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة، تحته آدم ومَنْ دونه ولا فخر»(٣)، (اللواء): العلم والراية.

قال الإمام ﷺ:

صَلَّى عَلَيْكَ اللهُ يَا عَلَمَ الهُدَى ... مَا حَنَّ مُشْتَاقٌ إِلَى مَثْوَاكَا

(العلم) بفتح العين المهملة: العلامة، يُقال: علمه علمًا -من الباب الأول والثاني- إذا وَسَمَهُ، وبكسر العين: المعرفة -من الباب الرابع- فاعرف الفرق بينهما.

(الهدى) بضم الهاء: الرَّشاد، والدلالة على الرشاد، يُقال: هو على الهدى، أي: على الرشاد، ويقال: سَلِ اللهَ الهدى، أي: الدلالة على الرشاد.

قوله (حَنَّ) أي: اشتاق، يُقال: حَنَّ الرجل حنينًا -من الباب الثاني- إذا استطرب،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه ابن عدي في الكامل (٣/ ٧٦).

(٣) سبق تخريجه.

أي: اشتاق، ويُقال: ما هذا الحنين؟ أي: شدة البكاء والطرب، أو صوت الطرب عن حزن أو فرح.

(المثوى): على زنة المأوى، وجمعه مثاوي: المنزل، يُقال: نزلوا مثوىً مباركًا، أي: منزلاً مباركًا.

وحاصل المعنى: صلى الله عليك يا دليل الهدى وعلامة الرشاد، مدَّة حنين مشتاق إلى منزل جودك وعتبة باب فضلك، كيف لا وإليك الجذع حَنَّ وعليك الله مَنَّ، ما أضاء النهار والليل جَنَّ.

قال الإمام ﷺ:

وَعَـلَى صَـحَابَتِكَ الكِـرَامِ جَمِيعِهِمِ وَالتَّـابِعِينَ وَكُـلِّ مَـنْ وَالاَكَـا

(الصحابة): جمع صاحب، وليس بجمع فاعل على فعالة غير هذا، أقول: الصحابة مصدر، يقال: صحبه صحابة صحبة -من الباب الرابع- إذا عاشره، ثم غَلَبَ استعماله في الجمع، يقال: هم أصحاب وأصاحيب وصُحْبَان بضم الصاد، وصِحاب بالكسر، وصحابة بالفتح وصحابة بالكسر، وصحب بالفتح (الصحابي): من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ومات على الإيمان، نسأل الله الموت على الإيمان[1].

(الكرام): جمع كريم، كعظام: جمع عظيم، الكريم: الجَوَّاد والصَّفوح، يقال: رجل كريم أي: جَوَّاد، ولا شك أنهم كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ويُقال: رجل كريم أي: صفوح، و(الباء): زائدة، و(التابعين): معطوف على صحابتك، و(كل): معطوف على التابعين الأقرب، أو صحابتك الأصل، (والاك) أي: نصرك وأحبك.

---

(١) وقال بعضهم: الراجح أن «أصحاب»: ليس جمعًا لصاحب، إذ لا يجمع فاعل على أفعال، ولا جمع صحْب بإسكان الحاء؛ لأن فعل الصحيح العين لا يجمع على أفعال، بخلاف المعتل؛ فإنه يجمع على أفعال كثوب وأثواب، وبيت وأبيات، بل هو جمع صحِب بكسر الحاء كفرح مخفف، صحْب بإسكانها، وهو اسم جمع صحب بالإسكان، انتهى.

و(الصحابي): من اجتمع بنبيِّنا مؤمنًا به، ولو من الجن والملائكة على وجه الأرض بجسمه، ولو لحظة المرور بعد البعثة حال حياتها، ولو لم يميز كمن حنكه النبي ﷺ، ولو لم يمت على ذلك، فإن الإسلام شرط في دوام الصحبة، أي: لكونه يسمى صحابيًّا بعد الموت لا لأصلها، وإلا لم يتحقق هذا الوصف لأحد في حياته، ولا يوصف بها المرتد عند المالكية، انتهى.

الحمد لله على آلائه والشكر على نعمائه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل رسله وأنبيائه، وعلى آله وأصحابه وأوليائه، اللهم احشرنا تحت عَلَمِهِ ولوائه ﷺ.

قد وقع الفراغ من تبييض «**منن الرحمن في شرح القصيدة الميمونة للإمام الأعظم نعمان، في مدح سيد ولد عدنان**»، محمد الذي هو عين الأعيان، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ما دامت الجنان، على يدي أضعف العباد، مصطفى بن محمود الوردي، الراجي الشفاعة، من سيدنا محمد المصطفى القرشي في شهر صفر الخير سنة ألف ومائتين وتسعة وسبعين، من هجرة كعب العارفين وقبلة العاشقين وذكر الذاكرين، محمد ﷺ المبعوث رحمة للعالمين، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين[1]

(١) وبآخر النسخة ما نصه: كتب في أيام دولة السلطان المؤيد بالنصر العزيز السلطان عبد العزيز.
اللهم اجعله على أعدائه غالبًا عزيزًا بحرمة من أنزلت عليه: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح:٣] انتهى.

قصيدة أبي حنيفة النعمان
في مدح سيد ولد عدنان ﷺ

تصنيف

الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان الكوفي

تحقيق وتعليق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الناشر

دار الحقيقة

للبحث العلمي

القصيدة الميمونة

لأبي حنيفة النعمان ﷺ

يَا سَيِّدَ السَّادَاتِ جِئْتُكَ قَاصِدًا ... أَرْجُو رِضَاكَ وَأَحْتَمِي بِحِمَاكَا
وَاللهِ يَا خَيْرَ الخَلَائِقِ إِنَّ لِي ... قَلْبًا مَشُوقًا، لَا يَرُومُ سِوَاكَا
وَبِحَقِّ جَاهِكَ إِنَّنِي بِكَ مُغْرَمٌ ... وَاللهُ يَعْلَمُ أَنَّنِي أَهْوَاكَا
أَنْتَ الَّذِي لَوْلَاكَ مَا خُلِقَ امْرُؤٌ ... كَلَّا، وَلَا خُلِقَ الوَرَى لَوْلَاكَا
أَنْتَ الَّذِي مِنْ نُورِكَ البَدْرُ اكْتَسَى ... وَالشَّمْسُ مُشْرِقَةٌ بِنُورِ بَهَاكَا
أَنْتَ الَّذِي لمَا رُفِعْتَ إِلَى السَّمَا ... بِكَ قَدْ سَمَتْ وَتَزَيَّنَتْ لِسُرَاكَا
أَنْتَ الَّذِي نَادَاكَ رَبُّكَ: مَرْحَبًا ... وَلَقَدْ دعَاكَ لِقُرْبِهِ وَحَبَاكَ
أَنْتَ الَّذِي فِينَا سَأَلْتَ شَفَاعَةً ... نَادَاكَ رَبُّكَ: لَمْ تَكُنْ لِسِوَاكَا
أَنْتَ الَّذِي لَمَّا تَوَسَّلَ آدَمٌ ... مِنْ زَلَّةٍ، بِكَ فَازَ وَهْوَ أَبَاكَا
وَبِكَ الخَلِيلُ دَعَا، فَعَادَتْ نَارُهُ ... بَرْدًا، وَقَدْ خَمَدَتْ بِنُورِ سَنَاكَا
وَدَعَاكَ أَيُّوبٌ لِضُرٍّ مَسَّهُ ... فَأُزِيلَ عَنْهُ الضُّرُّ حِينَ دَعَاكَا
وَبِكَ المَسِيحُ أَتَى بَشِيرًا مُخْبِرًا ... بِصِفَاتِ حُسْنِكَ، مَادِحًا لِعُلَاكَا
وَكَذَاكَ مُوسَى لَمْ يَزَلْ مُتَوَسِّلًا ... بِكَ فِي القِيَامَةِ مُحْتَمٍ بِحِمَاكَا
وَالأَنْبِيَاءُ وَكُلُّ خَلْقٍ فِي الوَرَى ... وَالرُّسْلُ وَالأَمْلَاكُ تَحْتَ لِوَاكَا
لَكَ مُعْجِزَاتٌ أَعْجَزَتْ كُلَّ الوَرَى ... وَفَضَائِلٌ جَلَّتْ، فَلَيْسَ تُحَاكَى
نَطَقَ الذِّرَاعُ بِسُمِّهِ لَكَ مُعْلِنًا ... وَالضَّبُّ قَدْ لَبَّاكَ حِينَ أَتَاكَا
وَالذِّئْبُ جَاءَكَ وَالغَزَالَةُ قَدْ أَتَتْ ... بِكَ تَسْتَجِيرُ وَتَحْتَمِي بِحِمَاكَا

وكَذاَ الوُحُوشُ أتَتْ إليكَ وَسَلَّمَتْ ... وشَكَا البَعِيرُ إليكَ حينَ رآكَا
وَدَعَوْتَ أَشْجَارًا أَتَتْكَ مُطِيعَةً ... وَسَعَتْ إِلَيْكَ مُجِيبَةً لِنِدَاكَا
وَالمَاءُ فَاضَ بِرَاحَتَيْكَ وَسَبَّحَتْ ... صُمُّ الحَصَى بِالفَضْلِ فِي يُمْنَاكَا
وَعَلَيْكَ ظَلَّلَتِ الغَمَامَةُ فِي الوَرَى ... وَالجِذْعُ حَنَّ إِلَى كَرِيمِ لِقَاكَا
وَكَذَاكَ لَا أَثَرٌ لِمَشْيِكَ فِي الثَّرَى ... وَالصَّخْرُ قَدْ غَاصَتْ بِهِ قَدَمَاكَا
وَشَفَيْتَ ذَا العَاهَاتِ مِنْ أَمْرَاضِهِ ... وَمَلَأْتَ كُلَّ الأَرْضِ مِنْ جَدْوَاكَا
وَرَدَدْتَ عَيْنَ قَتَادَةَ بَعْدَ العَمَى ... وَابْنُ الحُصَيْنِ شَفَيْتَهُ بِشِفَاكَا
وَكَذَا خُبَيْبٌ وَابْنُ عَفْرَا بَعْدَمَا ... جُرِحَا شَفَيْتَهُمَا بِلَمْسِ يَدَاكَا
وَعَلِيٌّ مِنْ رَمَدٍ بِهِ دَاوَيْتَهُ ... فِي خَيْبَرٍ فَشُفِي بِطِيبِ لَمَاكَا
وَسَأَلْتَ رَبَّكَ فِي ابْنِ جَابِرَ بَعْدَمَا ... أَنْ مَاتَ أَحْيَاهُ وَقَدْ أَرْضَاكَا
وَمَسَسْتَ شَاةً لِأُمِّ مَعْبَدَ بَعْدَمَا ... نَشَفَتْ فَدَرَّتْ مِنْ شِفَا رُقْيَاكَا
وَدَعَوْتَ عَامَ القَحْطِ رَبَّكَ مُعْلِنًا ... فَانْهَلَّ قَطْرُ السُّحْبِ حِينَ دَعَاكَا
وَدَعَوْتَ كُلَّ الخَلْقِ فَانْقَادُوا إِلَى ... دَعْوَاكَ طَوْعًا سَامِعِينَ نِدَاكَا
وَخَفَضْتَ دِينَ الكُفْرِ يَا عَلَمَ الهُدَى ... وَرَفَعْتَ دِينَكَ فَاسْتَقَامَ هُنَاكَا
أَعْدَاكَ عَادُوا فِي القَلِيبِ بِجَهْلِهِمْ ... صَرْعَى وَقَدْ حُرِمُوا الرِّضَا بِجَفَاكَا
فِي يَوْمِ بَدْرٍ قَدْ أَتَتْكَ مَلَائِكٌ ... مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ قَاتَلَتْ أَعْدَاكَا
وَالفَتْحُ جَاءَكَ يَوْمَ فَتْحِكَ مَكَّةً ... وَالنَّصْرُ فِي الأَحْزَابِ قَدْ وَافَاكَا
هُودٌ وَيُونُسُ مِنْ بَهَاكَ تَجَمَّلَا ... وَجَمَالُ يُوسُفَ مِنْ ضِيَاءِ سَنَاكَا
قَدْ فُقْتَ يَا طَهَ جَمِيعَ الأَنْبِيَا ... طُرًّا، فَسُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَاكَا
وَاللهِ يَا يَس مِثْلُكَ لَمْ يَكُنْ ... فِي العَالَمِينَ وَحَقِّ مَنْ نَبَّاكَا

عَنْ وَصْفِكَ الشُّعَرَاءُ يَا مُدَّثِّرٌ ... عَجَزُوا وَكَلُّوا مِنْ صِفَاتِ عُلَاكَا

إِنْجِيلُ عِيسَى قَدْ أَتَى بِكَ مُخْبِرًا ... وَلَنَا الكِتَابُ أَتَى بِمَدْحِ حُلَاكَا

مَاذَا يَقُولُ المَادِحُونَ وَمَا عَسَى ... أَنْ تَجْمَعَ الكُتَّابُ مِنْ مَعْنَاكَا

وَاللهِ لَوْ أَنَّ البِحَارَ مِدَادُهُم ... وَالعُشْبَ أَقْلَامٌ جُعِلْنَ لِذَاكَا

لَمْ تَقْدِرِ الثَّقَلَانِ تَجْمَعُ نَزْرَهُ ... أَبَدًا وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ إِدْرَاكَا

بِكَ لِي قُلَيْبٌ مُغْرَمٌ يَا سَيِّدِي ... وَحُشَاشَةٌ مَحْشُوَّةٌ بِهَوَاكَا

وَإِذَا سَكَتُّ فَفِيكَ صَمْتِي كُلُّهُ ... وَإِذَا نَطَقْتُ فَمَادِحًا عَلْيَاكَا

وَإِذَا سَمِعْتُ فَعَنْكَ قَوْلاً طَيِّبًا ... وَإِذَا نَظَرْتُ فَمَا أَرَى إِلَّاكَا

يَا مَالِكِي كُنْ شَافِعِي فِي فَاقَتِي ... إِنِّي فَقِيرٌ فِي الوَرَى لِغِنَاكَا

يَا أَكْرَمَ الثَّقَلَيْنِ يَا كَنْزَ الوَرَى ... جُدْ لِي بِجُودِكَ وَارْضِنِي بِرِضَاكَا

أَنَا طَامِعٌ بِالجُودِ مِنْكَ وَلَمْ يَكُنْ ... لِأَبِي حَنِيفَةَ فِي الأَنَامِ سِوَاكَا

فَعَسَاكَ تَشْفَعُ فِيهِ عِنْدَ حِسَابِهِ ... فَلَقَدْ غَدَا مُتَمَسِّكًا بِعُرَاكَا

فَلَأَنْتَ أَكْرَمُ شَافِعٍ وَمُشَفَّعٍ ... وَمَنِ الْتَجَا بِحِمَاكَ نَالَ وَفَاكَا

فَاجْعَلْ قِرَاكَ شَفَاعَةً لِي فِي غَدٍ ... فَعَسَى أَكُنْ فِي الحَشْرِ تَحْتَ لِوَاكَا

صَلَّى عَلَيْكَ اللهُ يَا عَلَمَ الهُدَى ... مَا حَنَّ مُشْتَاقٌ إِلَى مَثْوَاكَا

وَعَلَى صَحَابَتِكَ الكِرَامِ جَمِيعِهِم ... وَالتَّابِعِينَ وَكُلِّ مَنْ وَالَاكَا